ستيفان زفايغ

أربع وعشرون ساعة من حياة امرأة



ترجمة: الأسعد بن حسين

مراجعة: أحمد شاكر بن ضية

رواية

مسكيلياني

أربع وعشرون ساعة من حياة امرأة




مكتبة
الفكر الجديد

ستيفان زفايغ

أربع وعشرون ساعة من حياة امرأة

ترجمة: الأسعد بن حسين

مراجعة وتحرير: أحمد شاكر بن ضيّة





المؤلّف: ستيفان زفايغ

عنوان الكتاب: 24 ساعة من حياة امرأة

ترجمة: الأسعد بن حسين

مراجعة وتحرير: أحمد شاكر بن ضيّة

خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة

تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9938-833-66-9

الطبعة الأولى: 2017



مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com



Ottawa, ON. Canada

info@masaapublishing.com

www.masaapublishing.com



تقديم

في بداية سنة 1942 أنبأنا راديو باريس بأنّ : «الكاتب ستيفان زفايغ، قد انتحر في البرازيل». نبأٌ تداولته من الغد صحفُ العاصمةِ النازيّةُ في ثلاثة أسطر لا غير. وبعدها ران الصمت المطلق على هذا الكاتب الكبير والنبيل الذي حقّق في فرنسا شهرةً تعادل تلك التي حقّقها أفضل كتابها.

ولد ستيفان زفايغ بفيينا في 28 نوفمبر 1881، وبها تلقى تعليمه. ولم يبلغ عامه الثالث والعشرين حتّى حصّل الدكتوراه في الفلسفة، وحاز جائزة «باورنفلد» للشعر، إحدى أهم الجوائز الأدبية في بلاده. وكان حينها قد نشر مجموعة شعرية صغيرة، وترجمة لأفضل أشعار فرلان، كما كتب بعضَ القصص ونصًّا مسرحيا.

كان زفايغ يعتبر أنّ «الأدب ليس الحياة، بل هو عبارة عن وسيلة لتمجيد الحياة، وسيلة للقبض على بعدها المأساوي بشكل أكثر وضوحًا وأكثر جلاءً.» وكان توّاقًا إلى السفر لكي «يمنح حياته الاتساع والامتلاء، القوة والمعرفة، وأيضا لكي يربطها بجواهر الأشياء وأعماقها».

سنة 1904 دخل باريس التي سيعود لزيارتها عدة مرات، وهناك



جمعته صداقة وثيقة بمجموعة كُتّاب الأباي، ولا سيّما جول رومان. وقد قدّما معًا بعد ذلك بسنوات أفضلَ اقتباس لمسرحية «فولبون» التي ابتهج آلافُ الفرنسيين برؤية عروضها، «فولبون» التي لا يزال نجاحها مستمرا إلى يومنا هذا. وزار بعد ذلك أميل فارهارن في إقامته المتواضعة بـ«كايو كي بيك»، في بلجيكا، ثمّ صار مترجمَ أعماله وكاتبَ سيرته. عاش في روما، وفي فلورنسا، وهناك تعرّف إلى الكاتبة السويدية الشهيرة «إيلين كاي»، وعاش كذلك في بروفانس بإسبانيا، وفي إفريقيا. زار إنكلترا، وتجوّل في الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا والمكسيك. وقضّى سنةً كاملةً في الهند... وعكس ما قد نعتقد، لم تمنعه كلّ هذه الأسفار من مواصلة أعماله الأدبية بكلّ يُسرٍ، بل إنها تجعل المرء يفكّر مليًّا في ما قاله ذات يوم: «على الرغم من إرادتي الكبيرة، لا أتذكّر أنّي اشتغلت طيلة تلك الفترة. وهو ما تدحضه الوقائع لأني ألّفتُ كتبًا كثيرةً، وألّفتُ مسرحياتٍ كثيرةً عُرضت في مختلف المسارح الألمانية، وحتى في الخارج».

كان لا بد لأسفار زفايغ من أن تنمّي عنده هوس الاطّلاع على الآداب الأجنبية الذي تملّكه منذ مراهقته، ولا سيما نحو الفرنسية. هذا الهوس الذي تحوّل إثر ذلك إلى ضرب من العبادة كشفت عنه ترجماته المميزة لبودلير، وفرلان، ورامبو، وصديقه فارهارن المعروف في أوروبا الوسطى بأشعاره القوية، ونصوصه المسرحية، وترجم أيضًا لسواريس، ولرومان رولان، وقد كان من أوائل من لفتوا إليه الانتباه في البلدان الناطقة بالألمانية، وهو الذي تأثّر به أخلاقيًّا أيّما تأثّر.

كان زفايغ يتقد حماسا للسلام، وأنموذجا للأوروبي الحقيقي (هذه



العبارة التي ستخدم أكثر الأطماع وحشية، وتخفي أكبر الجرائم بشاعةً)، لذلك كان جرحه عميقا عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى (1914 / 1918).

وفي سنة 1919 اختار الانزواء في «سالزبورغ» المدينة المتحف التي يقول عنها «هرمان باهر» وهو أيضًا من العارفين بالآداب الفرنسية والمعجبين بها: «بعض شوارعها تذكّرك بمدينة بادوفا الإيطالية، في حين تحملك شوراع أخرى على الاعتقاد بأنك في هايلدسهايم الألمانية».

ومن «سالزبورغ» مقام الأساقفة الأمراء والمكان الذي عاش فيه موزارت ، ظلّ زفايغ يرسل إلينا رسائله التي تدعونا إلى إقامة جولة حول العالم، وأعمالَهُ الضاجّة بالحياة والغنية بالأحاسيس والشغف، ولعلّ أبرزها **«أربع وعشرون ساعة من حياة امرأة»** التي قال عنها غوركي: «لا أظنّني قرأتُ من قبل كتابًا بمثل هذا العمق.» وأعمال أخرى مثل **«سعار»** ، و**«فوضى الأحاسيس»** و**«الخوف»** ...

وفي أقل من عشر سنوات نشَر زفايغ الذي لم يكن يعتبر العمل إلاّ «شعاعًا ضئيلاً من الحياة، وشيئًا ثانويًا» عشر قصص، وما يماثلها من الأعمال المكتوبة بلغة جزلة عن دوستويفسكي وتولستوي ونيتشه وفرويد الذي كان صديقه الحميم، وستندال ومارسلين وديبورد فالمور، إلخ... وهي أعمال تنمّ كلّها عن اتساع ثقافته و تشهد له بأنه كاتب سيرة لا يقلّ قيمة عن كلّ من كتب عنهم.

وبعد ذلك جاءت مرحلة كتاباته التاريخية التي حاز بفضلها منذ كتابه الأوّل «فوشيه» الاعتراف الذي يُمنح لكبار المعلمين.



لكن للأسف، استحوذ هتلر ونازيوه على الحكم في ألمانيا، وتعددت ملاحقاتهم للمقاومين، وبعد مدة سيقع اجتياح النمسا التي ستصبح شبه نازية. وسيضطر زفايغ للسفر إلى إنكلترا والاستقرار بمدينة «باث» في مقاطعة «سومراست». ومنذ تلك اللحظة، منذ أن هجر منزله السعيد في سالزبورغ لم تدعه نفسه القلقة يذوق طعم الراحة. لقد نكّل النازيون بأمّه التي انتحرت في فرنسا.. واندلعت الحرب.

ما يزال صدى كلمته يتردّد على مسامعي إلى الآن حين قال لي مُرتعبًا في بداية العام 1940 بفندق لوفوا، هو الذي طالما حذّرنا من خطط هتلر واستعدادات ألمانيا للحرب: «ستُصرعون». ولقد أثبتت الأحداث صحّة تنبؤاته، وكان ذلك كفيلًا بقضّ مضجعه. لقد رأى الجهل والظلام يعمّان كلّ أوروبا التي سخّر حياته لتثقيفها. هجر بيته في باث نهائيًا ويمّم شطر الولايات المتحدة حيث فكّر في الاستقرار. لكن القلق المعنوي الذي أضناه هدم فيه كل إحساس بالاستقرار. وفي الخامس عشر من شهر أوت 1941 سيركب الباخرة إلى البرازيل ليقيم بمدينة «بتروبوليس» وكلّه أملٌ في قضاء بقية حياته هناك بسلام، ولكن دون جدوى. فلم يكن كاتب «أرازم» مُصارعًا، وهو في ذلك يشبه كثيرا شخصية البطل الهولندي لكتابه، فكتب رسالة وداع يوم 22 فيفري 1942 يقول فيها :

«قبل أن أغادر الحياة بمحض إرادتي وفي كامل وعيي، تنتابني رغبةٌ صادقة في إنجاز واجب أخير : أن أوجّه خالص عبارات الشكر إلى البرازيل، هذا البلد الرائع الذي منحني -ومنح أعمالي-



راحة تكشف عن بالغ الود وكرم الضيافة. لقد أَلِفْتُ محبّته المتعاظمة يومًا إثر يوم، وما كنت لأختار مكانًا غيره لبناء حياة جديدة. الآن وقد انقرض عالمي الفني وهدّم وطني الروحي أوروبا نفسَه بنفسِه، يحتاج المرء بعد أن بلغ الستين من العُمر إلى امتلاك قوى فريدة كي يبدأ حياته مرّةً أخرى من الصفر، ولقد استنفدت كل قواي في سنوات التيه الطويلة. لذلك أعتقد أنه من الأفضل المغادرة في الوقت المناسب وبرأس مرفوع، مغادرة وجود لطالما مثّل العمل الفكري فيه بهجةً خالصة، وجسّدت الحريةُ الفردية الخيرَ المطلق في هذا العالم.

أحيي كل أصدقائي، راجيا أن يدركوا الفجر بعد ليل مُظلم طويل ، أمّا أنا فقد عيل صبري، لذلك أرحل قبلهم.»

ستيفان زفايغ

بتروبوليس 22/ 02/ 1942

وفي صباح الغد لن يكون زفايغ على قيد الحياة.


مكتبة
الفكر الجديد

(1)

اندلعت في طاولتنا بفندق «الريفييرا» العائلي الصغير، حيث كنت أقيم حينها (قبل الحرب بعَشر سنوات)، محادثة عنيفة، محادثة كانت تنذر بأن تتحول فجأة إلى مشاجرة حامية، حتى أنها وردت مصحوبة بعبارات حاقدة ومهينة.

أغلب الناس ليس لهم إلاّ خيال مُتعبٌ ، فما لا يمسّهم مباشرة أو يشتّت ذهنهم لا يؤثر فيهم البتة، لكن بمجرّد أن يحصل حادثٌ -وإن كان قليل الأهمية- أمام أعينهم و في متناول إدراكهم، حتّى تغلي في الحين داخلهم انفعالات مفرطة ويعمدون بشكل ما إلى التعويض عن لا مبالاتهم الاعتيادية عبر سورة غضب في غير محلها ومبالغ فيها.

هكذا حدث الأمر في مجموعتنا البرجوازية التي تعودت تشارك طاولة الأكل، كما تعودت على مناقشات قصيرة ودعابات صغيرة، لا عمق فيها ، مجموعة تتفرّق عادة بمجرد الانتهاء من الأكل، فالزوجان الألمانيان يغادران للتنزه والتقاط الصور، ويغادر الدانماركي السمين لممارسة فن الصيد الممل، وتعود المرأة الإنكليزية المميزة إلى كتبها، وينطلق الزوجان الإيطاليان نحو المغامرة في «مونتي كارلو»، أمّا أنا فأذهب للجلوس متكاسلا على أحد كراسي الحديقة، أو إلى العمل.



لكن في هذه المرة بقينا جميعًا مشتبكين في هذه المحادثة الضارية، وإذا ما حدث وانتصب أحدُنا فجأةً فليس للانسحاب بأدب مثلما جرت العادة، بل ينتصب في موجة انفعال حارق تأخذ أحيانًا أشكالًا مرعبة مثلما سبق وذكرت.

ويجب الاعتراف بأنّ الحدث الذي ألهب مجموعتنا الصغيرة إلى تلك الدرجة كان حدثًا فريدًا من نوعه. فالفندق العائلي الذي كنّا نقطنه نحن السبعة ويبدو من الخارج بمثابة «فيلاّ» منفصلة، -«آه! كم كان المشهد الذي كنّا نراه من النوافذ المطلّة على الساحل الصخري المتعرّج رائعًا!»-، لم يكن في الواقع سوى مُلحَقٍ أقلّ كلفة من فندق كبير، يتصل بالحديقة بشكل مباشر، يجعلنا نحن قاطني هذا المكان نعيش في تواصل مستمر مع نزلائه.. ولقد شهد هذا الفندق الليلة الماضية فضيحة مدوية. فخلال فترة الظهيرة، وعلى متن قطار الساعة الثانية عشرة وعشرين دقيقة بالضبط - من المهم أن أذكر الوقت بدقة، من أجل هذه الواقعة، ومن أجل مناقشتنا الصاخبة التي ستليها -، وصل إلى الفندق شابٌّ فرنسيّ ونزل بغرفة تطلّ على البحر، وهذا وحده كان كفيلًا بأن يجعل المرء يتنبأ بشكل مسبق برخائه المادي.

لقد لفت إليه الانتباه، لا لأناقته المتميزة وحسب، بل لوسامته الصارخة وجماله وجاذبيته، ففي وسط وجه صغير، أنثوي شاب، ينتصب شاربان أشقران ناعمان يداعبان شفتين مغريتين، وفوق جبينه الناصع البياض، شعر كستنائي مجعّد ومتموج، كل نظرة من عينيه الدافئتين عبارة عن مداعبة ودية، وكل ما في شخصيته رقيق



وجميل ومحبّب دون أيّ تصنّع أو تكلّف.

من بعيد، يذكّر مظهره بدمى الشمع الوردية وعصيّها الأنيقة التي تعرض عليها الملابس الجديدة في مغازات الموضة الكبيرة، في تجسيد مثالي للجمال الذكوري. ولكن حالما نتملاّه عن قرب يضمحلّ كلّ انطباع بالخيلاء، لأننا هنا - وهذه حالة نادرة - أمام طيبة طبيعية مجسدة في شخص صاحبها. حين يمرّ، يحُيّي الناسَ بطريقة تجمع بين التواضع والود، وكم كان ممتعًا رؤية لطفه يتجلى بحرية في كل فرصة تسنح. فما من سيدة كانت تذهب إلى خزانة الثياب إلا وكان يهرع كي يناولها معطفها. وما من طفل إلا وكان يبادره بنظرة ودية أو كلمة مفرحة! لقد كان اجتماعيًا ورصينًا في الوقت نفسه. باختصار، كان يبدو واحدًا من تلك الكائنات المحظوظة التي يجعلها شعور الآخرين بالانجذاب نحو وجهٍ باسمٍ وفتنة شابة، تكتسب لُطفًا متجددا. حضورُه وحدهُ مِنّةٌ بالنسبة إلى نزلاء الفندق الذين كانوا من المسنّين ومن ذوي الصحة المتزعزعة. وقد نال مباشرةً مودة الجميع، وذلك بفضل طلعته البهية الناضحة بالشباب وهيئته الحيوية وهذه العذوبة التي يطفو عليها سحر رائع.

ولم تمض ساعتان على قدومه حتى كان يلعب التنّس مع ابنَتي صاحب «المصنع الليوني» البدين والثري: «آنيت» ذات الاثني عشر عامًا، و«بلانش» ابنة الستة عشر، وأمُّهما النحيلة والرقيقة، الأمّ المنطوية على نفسها السيدة «هنرييت» تنظر مبتسمة بوداعة إلى ذلك الدّلع العفوي الذي كانت البنتان الغرّتان تغازلان به الشاب الغريب.

في المساء، ظلّ يتابعنا ساعةً كاملةً، ونحن نلعب الشطرنج، ومن حين لآخر كان يروي لنا بعض النوادر، دون أن يربك مطلقا انغماسنا في اللعب، ثم تجول عدة مرات مع السيدة « هانرييت» التي كان زوجها كالعادة يلعب الدومينو مع صديق أعمال له، وفي وقت متأخر رأيته في محادثة حميمة مشبوهة مع سكرتيرة النزل في المكتب شبه المظلم. وفي اليوم التالي رافق صاحبنا الدانمركي إلى الصيد منذ الصباح مظهرا معارف عجيبة في هذا الميدان، وبعد ذلك التقى بصاحب المصنع وتحادثا طويلا في السياسة فأظهر أنه محدث بارع، لأننا كنا نسمع ضحكات الرجل السمين المدوية وهي تغطي صوت تدفق الأمواج.

بعد الغداء (من الضروري جدًا، ومن أجل فهم الموقف، أن أروي بدقّة متناهية المراحل التي مرّ بها) قضّى ساعة أخرى مع السيدة هنرييت وهما يتناولان القهوة في الحديقة على انفراد، ثم لعب التنّس مرّة ثانية مع ابنتيها، وتحادث بعد ذلك في البهو مع الزوجين الألمانيين. وعند السادسة مساء، وأنا ذاهب لبعث رسالة، التقيت به في محطة القطار، فسارع إلى القدوم نحوي ليعلمني بأنّه مضطر للاعتذار عن مصاحبتي، لأنه دُعي فجأةً للعودة، لكنه سيرجع بعد يومين. وعند المساء لم يكن في غرفة الطعام، لكن الجميع وبكل بساطة افتقدوه، وكان كل الجالسين حول الطاولات يتحدّثون عنه ويمتدحون طبعه المحبّب والبهيج.

وفي الليل، عند الساعة الحادية عشرة، كنت جالسًا في غرفتي بصدد إتمام مطالعة كتاب، حين سمعت فجأةً عبر النافذة المفتوحة



صراخًا وأصواتًا مرتبكة تنادي في الحديقة، ما ينم عن هرج ومرج بالفندق المجاور. فهرعت إلى النزول بدافع الانشغال لا بدافع الفضول، وبعد خمسين خطوة كنت في الحديقة لأجد الزبائن وأعوان الفندق في حالة كبيرة من الحيرة والتأثر، لأن السيدة هنرييت التي كان زوجها منشغلا كعادته بلعبة الدومينو مع صديقه من «نامور»، لم تعد إلى النزل من جولتها المسائية على شاطئ البحر، وكانوا يخشون جميعًا أن تكون قد تعرضت إلى مكروه ..

لقد اندفع زوجها البدين المعروف برصانته كالثور نحو الساحل وهو يصيح في الليل بصوت يغلب عليه التأثر : «هنرييت! هنرييت!»، وكان صوته يولّد الانطباع بأنّه لا يمكن أن يصدر إلا عن وحش هائل قادم من العصور البدائية متأثرًا بجلده حتى الموت.

جُنَّ الأولاد والفتيان وهم يصعدون السلّم ويهبطون، وأُوقِظ كل النزلاء وتمّ الاتصال بالشرطة. لكن الرجل البدين في سترته غير المُزرّرة كان يتنقل وسط هذه الجلبة متعثرًا أو ماشيًا بخطوات واسعة وهو ينتحب ويصرخ في الليل بطريقة غير معقولة: «هنرييت! هنرييت!». وعلى أثر هذه الجلبة أفاقت الطفلتان بثياب نومهما، وهرعتا إلى النافذة وهما تناديان أمهما، فأسرع أبوهما إليهما لتهدئتهما.

بعد ذلك، حصل شيء مرعب تصعب روايته، لأن الحالة المتوترة جدًا أثناء لحظات الأزمة الاستثنائية غالبًا ما تُضفي على هيئة الإنسان تعبيرًا مأساويًا إلى أبعد حد، لا يمكن للخيال ولا للكلام أن يصوّرا قوّتَه الصاعقة بدقّة، ففجأة نزل الرجل البدين الدرجات التي كانت تئن تحت ثقله، و بوجه متغير الملامح، مليء بالتعب ومتوحّش



في الآن ذاته، قال لرئيس المجموعة، وهو يحمل ورقةً في يده، بصوت يكاد لا يُفهم: «استدعوا الناس جميعًا! لا جدوى من البحث. لقد هجرتني زوجتي».

كانت هيئة الرجل المصفوع متوترة بشكل خارق وكأنها خارجة عن طاقة الإنسان. وبدت جليّةً لكلّ الذين كانوا يحيطون به ويقفون حوله بفضول، أو للذين تَواروا فجأة يعميهم الارتباك والخجل والذّعر. أمّا هو فلم يبق له إلاّ قليلٌ من القوّة كاد لا يسعفه في المرور أمامنا مترنّحًا دون أن ينظر إلى أحد، ليطفئ النور في صالة المطالعة، ويتناهى إلينا صوت جسده الثقيل الضخم وهو يتقوّض على إحدى الكنبات، يتلوه نحيب متوحش فظّ. ولقد كان ذلك وحده كافيًا لأن يغيظ رجلًا لم يسبق له أن بكى مُطلَقًا في حياته. لقد بعث هذا الألم الضّاري نوعًا من التأثّر المذهل حتى في أقلنا إحساسًا. فلم يتجرأ أيٌّ من الأولاد أو النزلاء الذين أتوا إلى هناك بدافع الفضول على المجازفة بابتسامة أو بكلمة شفقة، وكما لو أن عارًا قد لحق بنا نتيجة هذا الانفجار الصاعق للأحاسيس، ولفّنا الواحد تلو الآخر انسحبنا بصمتٍ نحو غرفنا، فيما ظلّت تلك الكتلة البشرية المحطّمة وحيدةً في الغرفة المظلمة. كان يختلج وينتحب وسط خلوته مع نفسه في المنزل الذي انطفأت أنواره ببطء. ولم تعد هناك سوى همسات ووشوشات وجلبة خافتة، وهو ما يُتيح للمرء أن يُدرك ببساطةٍ أنّ بإمكان حدث مَرَّ أمام أعيننا، على هذه الدرجة من الرعب، أن يثير انفعال من ألِفوا الضّجر واعتادوا على التسليات الخفيفة اللاواعية. لكن المحادثة التي اندلعت إثر ذلك على طاولتنا أوشكت أن تتحول إلى شكل



من أشكال العنف، على الرغم من أنها اتّخذت من الحدث المفاجئ نقطة انطلاق لها. فهل كانت المسألة متعلقة بمبدأين متواجهين، ومعارضة شرسة لمفاهيم مختلفة عن الحياة ؟

في الحقيقة، وبفضل تطفّل الخادمة التي قرأت تلك الرسالة بعد أن كوّرها الزوج المكلوم في فورة غضبه العارم، ورماها في مكان ما على الأرضية الخشبية، سرعان ما علمنا بأنّ السيدة هنرييت لم ترحل بمفردها، وإنما صحبة الشاب الفرنسي. ومنذ تلك اللحظة بدأت جاذبيّته تخمد بسرعة.

وفي نهاية المطاف، كان يمكن أن نتوقع منذ النظرة الأولى أن تتخلى «السيدة بوفاري» عن زوجها الريفي السمين من أجل شاب مميز، و لكن ما أثار استغراب سكان الفندق كلّهم، أن لا أحد من هؤلاء كان على سابق معرفة بهذا «اللوفلاس» ، لا صاحب المصنع ولا ابنتاه ولا حتّى السيدة هنرييت نفسها.وعلى الرغم من ذلك، فإنّ محادثة ليلية لم تستغرق أكثر من ساعتين على الشرفة، وجلسة واحدة لم تتجاوز ساعة في تناول فنجان من القهوة في الحديقة، كانتا كافيتين لجعل امرأةٍ محترمة، في الثالثة والثلاثين من عمرها، تتخلى بين ليلة وضحاها عن زوجها وابنتيها، وتنجرف بشكل أعمى خلف شاب أنيق غريب عنها تمامًا.

كانت طاولتنا المستديرة مُجمعةً على أنّ ما حدث – حسب ما يبدو جليًّا للعيان – ليس سوى خيانة غادرة ومناورة ذكية من العاشقين، فمن الواضح أن السيدة هنرييت كانت على علاقة سرية مع الشاب، وأن مُغوي الفئران هذا، لم يأت إلى هنا إلا لكي يضع آخر اللمسات



من أجل الهرب، فمن رابع المستحيلات - حسب استدلالهم-أن تجري امرأة شريفة خلف أوّل صافرة تطلق لها بعد ساعتين من التعارف لا غير.

أمّا أنا فقد وجدتني أتسلّى باتخاذ موقف آخر، إذ ألححتُ بعناد على إمكانية حصول حدث من هذا القبيل، بل على احتمال وقوعه مجدّدا، فقد أصبحت هذه المرأة بعد زواج تلَتهُ سنوات طوال من الخيبات ومن السّأم مُهيّأةً داخليًّا لأن تكون فريسةً لأيّ رجل جسور. وسرعان ما اتسعت رقعة المحاورة إثر معارضتي غير المتوقعة ليشارك فيها الجميع. وما زاد نارها تأججا هو رفض الزوجين الألمانيين والزوجين الإيطاليّين باحتقار مُهين تقبّل فكرة «الحب من النظرة الأولى» ولم يروا فيها إلاّ الجنون والترّهات الفارغة.

بإيجاز، لا جدوى من اجترار المسار العاصف لهذه المشاجرة التي حصلت بين بداية العشاء ونهايته ، فوحدهم المتعودون على الأكل في طاولات الفنادق يتمتعون بحس الفكاهة، والحجج المعتمدة في مجادلة حامية تحدثها الصدفة على مائدة طعام، عادة ما تكون غير أصيلة، لأنها ملتقطة باليد اليسرى على عجل.

وسيكون من الصعب كذلك تفسير سبب تدهور محادثتنا إلى مستوى جارح، ولكن أظنّ أن سبب هيجان الزوجين دون شعور منهما يكمن في رفضهما القطعيّ لفكرة أنّ زوجتيهما يمكن أن تقعا في مثل هذه المغامرات ومثل هذه الزلاّت. ولسوء الحظ لم يجدا شيئا أفضل لمقارعتي سوى أن الأعزب هو الوحيد الذي يمكنه أن يتخذ موقفي، وأن يحكم على الضمير الأنثوي من خلال المغامرات الجنسية



العابرة والسهلة لرجل غير متزوّج. وهذا ما سبب بداية انزعاجي، وبعد ذلك خلّلت المرأة الألمانية درسها بخردل وعظي، معتبرة أن النساء صنفان، صنف عفيفٌ جدير بهذا اللقب، وصنف مجبول على البغاء، وحسب رأيها فإنه لا بد للسيدة هنرييت من أن تكون واحدة من البغايا، عندها فقدت كل قدرة على التحمل، وصرت بدوري عنيفًا. فأعلنت أنّ إنكار هذا المعطى الصريح المتمثل في أن أيّ امرأة يمكن أن تكون في أيّ لحظة من لحظات حياتها فريسة لقوى غريبة أقوى من إرادتها ومن ذكائها، إنما هو إنكار يخفي فقط الخوف من غريزتنا الخاصة، الخوف من شيطنة طبيعتنا، وأن بعض الناس يستلذون الاعتقاد بأنهم أقوى ممّن «سهل إغواؤهم»، وأصفى خلُقًا، وأكثر طهارةً ونقاءً.

ومن جانبي، أعتقد أنّ امرأةً تتبع غريزتها بحرية وشغف أشرف، من تلك التي تختار - كما جرت العادة - أن تخون زوجها عبر إغماض عينيها وهي بين أحضانه.

هكذا تحدثت تقريبا في تلك المحاورة التي كان أوارها يستعر أكثر فأكثر، وكلما احتدّ الآخرون في مهاجمة السيدة هنرييت، تصدّيت للدفاع عنها بشراسة أكبر (وكان ذلك، حتى أكون صادقًا معكم، بعيدا عن قناعتي الشخصية). وقد أدّى هذا الدفاع المستميت إلى استفزاز الرباعيّ غير المتجانس، فانقضّوا عليّ بشراسة كبيرة جعلت العجوز الدانماركي بهيئته الجذلة، ومؤقت الساعة في يده، كحكم في مباراة كرة قدم، يضرب على الطاولة من وقت إلى آخر بظاهر أصابعه التي برزت عظامها، وهو يقول: «من فضلك أيها الرجل النبيل».



لكن مفعول تدخله لم يكن يستمر سوى لحظات. ولثلاث مرات متتالية، ينتصب أحد الرجلين المتزوجين واقفا ووجنتاه مشتعلتان من الغضب، وفي كلّ مرّة تجد زوجته صعوبة كبرى في تهدئته. باختصار، كان من الممكن لمحادثتنا، وبعد اثنتي عشرة دقيقة من اندلاعها، أن تنتهي بالملاكمة لو أن السيدة (س) لم تحول أمواج المحادثة المزبدة إلى ما يشبه البحر الراكد بكلماتها المهدئة.

كانت السيدة (س) العجوز الإنجليزية المميزة ذات الشعر الأبيض، رئيسة الشرف لطاولتنا بحق، دون أن تكون هناك حاجة لإجراء انتخاب من أجل ذلك. تجلس مستقيمة على كرسيّها، وهي تظهر القدر نفسَه من الود تجاه كل واحد من الجالسين، لا تتكلم كثيرا، لكن ما تقوله على درجة كبيرة من الأهمية، ومستساغ لدى السامعين، جسمها وحده كان متعة للناظرين، هدوء وتأمل عجيبان يشعان من ذاتها المطبوعة بمخزون أرستقراطي. ومن وجهة نظر ما، كانت تحافظ على مسافة مع كل النزلاء، وفي الوقت نفسه، استطاعت بفطنة مصحوبة بذوق رفيع أن تجعل لكل واحد منا مكانة مخصوصة عندها.

في غالب الأوقات كانت تجلس في الحديقة مع كتبها، وفي أحيان أخرى تعزف على البيانو، ونادرا ما رأيناها تختلط بالآخرين او تدخل معهم في نقاشات حماسية.

[illegible] تكاد لا تجلب الانتباه، ولكن تأثيرها علينا كان استثنائيا، [illegible] و للمرة الأولى في مناقشتنا ، انتابنا كلنا إحساس [illegible] بقوّة دون أن نسيطر على أنفسنا. ولقد استغلت



السيدة «س» الانقطاع الكريه الذي سببه المتحدث الألماني وهو ينتصب واقفا فجأة قبل أن يهدأ ويعاود الجلوس، ورفعت عينيها الرماديتين الواضحتين بشكل عفوي، لتنظر إليّ هنيهة في تردد ، كي تفكّر بعدها بدقة خبير حقيقي :

- حسب ما فهمت، أنت تعتقد أن السيدة هنرييت أو أي امرأة أخرى تستطيع أن تندفع نحو مغامرة مفاجئة دون سابق تصميم على ذلك. وتعتقد أنه لا يمكن لامرأة كهذه أن تكون مسؤولة عن تصرفات كانت قبل ساعة تعتبرها مستحيلة .

- أجل أعتقد ذلك سيدتي

- إذن كل حكم أخلاقي يصير دون قيمة، وكل انتهاك للقانون والأعراف يجد مبررا له ؟ وإذا كنت مؤمنا فعلاً بأنّ جرائم الحب كما يقول الفرنسيون ليست جرائم، لماذا إذن نحتفظ بالمحاكم؟ لا يحتاج الأمر إلى الكثير من الإرادة الطيبة،

-وأنت تمتلك إرادة طيبة مدهشة، أضافت بابتسامة لطيفة

-كي نكتشف في كل جريمة حبا، وبفضل هذا الحب عذرا.

كان لنبرتها الواضحة والمُفعمة بالبشاشة في الوقت نفسه مفعول منعش عليّ. فأجبت بين المزاح والجد، وأنا أقلّد - دون أن أشعر - طريقتها الموضوعية:

- بكل تأكيد، المحاكم أكثر جدية مني في هذه المسائل، فمهمتها الدفاع بكل شراسة عن الأخلاق والأعراف العامة، وهذا ما يجبرها على المعاقبة لا المسامحة. أمّا أنا، كإنسان عادي، فلا أجد سببًا يجعلني أضطلع بدور النيابة العامة بمبادرة مني. أفضل أن أكون محاميًا



محترفًا، وسعادتي بفهم الناس هي أكبر من سعادتي في الحكم عليهم.

نظرت السيدة (س) إليّ هُنيهةً، وهي تجلس قبالتي تمامًا، بعينيها الزرقاوين الصافيتين. فارتبكتُ. ظننتها لم تستوعب كلامي جيّدًا، وبدأت أهيئ نفسي لإعادته على مسامعها بالإنجليزية. لكنها واصلت أسئلتها بصوت جهوري متميز ، كما لو كانت تستجوبني في امتحان.

- إذن أنت لا ترى أنه من الحقير والمشين أن تتخلى امرأة عن زوجها وأبنائها كي تتبع رجلا - كائنا من كان - وهي لا تعرف بعد إذا ما كان جديرًا بحبها؟ هل تستطيع فعلًا أن تُبرِّئ سلوكًا بهذه الخطورة وهذا الطيش لدى امرأة لا تعدّ من الفتيات الصغيرات، أليس من الضروريّ لها أن تعمل على احترام نفسها إكرامًا لأطفالها؟

- أكرر لك سيدتي، أجبت بإصرار، أنني أرفض أن أنطق بحكم أو بإدانة على حالة كهذه، إنما أستطيع أن أعترف أمامك وأنا مرتاح البال بأني قد بالغت قليلًا، فهنرييت المسكينة هذه ليست بطلة: إنها لا تملك حتى طبيعة المغامرة. ما هي إلا عاشقة كبيرة. قبل أن أعرف ذلك، لم تكن تبدو لي إلا امرأة ضعيفة عادية. أكنّ لها الاحترام لأنها مشت خلف إرادتها بشجاعة. مازلت أشعر تجاهها بالشفقة، لأن الغد سيكون تعيسًا بالنسبة إليها إن لم يكن اليوم. ربما تكون قد تصرفت بغباء. إنها على كل حال قد تعجلت كثيرًا، إنما ليس في سلوكها شيء من الخساسة أو الدناءة، وفي مجمل الأحوال، لا أسمح لأي شخص بأن ينظر



باحتقار إلى هذه المسكينة التعيسة.

- أما تزال تكنّ لها التقدير نفسَه والاحترام ذاته إلى الآن؟ ألا تفرق بين المرأة الشريفة التي كانت معنا أول أمس، والمرأة الأخرى التي هربت أمس مع رجل غريب عنها كليًّا؟

- نفس الاحترام ونفس التقدير بلا شائبة أو نقصان.

- هل هذا صحيح ؟

ألقت هذا السؤال بالإنجليزية دون أن تشعر، بعد أن استحوذت المحادثة على كامل اهتمامها! وبعد مهلة تفكير قصيرة، ارتفعت نظرتها الصافية نحوي لتسألني من جديد:

- ولو حدث وقابلت السيدة هنربيت غدا، في مدينة «نيس» مثلاً وهي برفقة ذلك الشاب، هل ستلقي عليها التحية؟

- بكل تأكيد.

- وهل ستكلّمها؟

- بكل تأكيد

- وإذا... إذا كنتَ متزوجًا، هل تقدّم زوجتك لامرأة مثلها، كما لو أنّ شيئًا لم يكن؟

- بكل تأكيد.

- أوَ تفعلها حقا ؟!!

سألَتْ بالإنجليزية مرّة أخرى، بتعجب من يبدو منكِرًا ومذهولا.

- أفعلها بكل تأكيد



أجبتُ بالإنجليزية أيضًا دون وعي.

صمتت السيدة (س)، وبدت كالغارقة في تفكير عميق، وفجأة قالت وهي تتفرّس فِـيّ وكأنّها مندهشة من موقفها الشجاع :

- لا أعرف ولكن لو توفرت الفرصة، لفعلت ذلك أيضا.

وبمنتهى رباطة الجأش التي تفوق الوصف، الرباطة التي عرف بها الإنجليز وحدهم كيف يضعون حدًا لمحادثة بشكل جذري، وقفت دون فظاظة، ومدّت لي يدها بمودة.

وهكذا خيّم الهدوء مجدّدًا بفضل تدخّلها على طاولة عشائنا، وقد كنّا في قرارة أنفسنا ممتنّين لها جميعًا، إذ بقينا نتبادل التحيّات بتهذيب على الرغم من خصومتنا، وتبدد الجو المشحون، لتحلّ محلّه بعض المُزحات البسيطة.



(2)

على الرغم من أن محادثتنا خُتمت بلطف، فإنّ برودا خفيفًا بيني وبين معارضيّ قد أعقب الضراوة والهياج السابقين. وبدا الزوجان الألمانيان متحفظين، في حين لم يتوقّف الرجل الإيطالي عن سؤالي في الأيام الموالية بإلحاح، وبنبرة هازئة إن كانت لديّ أخبار عن «العزيزة السيدة هنرييت». فمهما أبدينا من كياسة في تصرّفاتنا، فقد كان هناك شيء من المتعذر تغييره -بعد أن تهدّم- في طبيعة علاقاتنا من حيث الصدق والصراحة. وصار برود منافسيّ السابقين وسخريتهم أكثر وضوحًا مقارنةً بالودّ الخاصّ الذي أصبحت تظهره لي السيدة (س) منذ تلك المناقشة. بل صارت تلك السيّدة التي ألفنا عنها التحفظ وندرة الكلام مع رفقاء الطاولة، تكاد لا تفوّت أيّ مناسبة كي تتوجّه إليّ بالحديث في الحديقة، ويمكن أن أقول كي تشرّفني إذ كانت تخصّني بذلك، لأن رصانتها ونبلها كانا يضفيان على الحوار الّذي تُؤْثرني به سمة متميزة من الكرم. ولكي أكون صادقًا لا بد لي أن أذكر أنها كانت تطاردني، وتقتنص كل فرصة تسنح للدخول في نقاش معي. كان هذا جليًّا إلى درجةٍ يمكن أن تخطر معها في بالي أفكار غريبة تدعو إلى الغرور لو لم تكن هذه المرأة عجوزًا بيضاء الشعر.



وفي كل مرة كنا نتجاذب فيها الحديث، كانت محادثتنا ترجع بشكل محتوم إلى نقطة الانطلاق، إلى السيدة هنرييت. وكان يبدو أن السيدة (س) تجد متعة سرية في إدانة هذه المرأة التي ضربت بواجبها عرض الحائط، بافتقارها إلى الجدية وإلى الانضباط الأخلاقي، لكنها كانت تبدو مسرورة في الوقت نفسه بالإخلاص الذي بقيت أحفظه لتعاطفي مع تلك المرأة الرقيقة والهشّة، تبدو مسرورة وهي ترى أن لا شيء يمكن أن يدفعني إلى التّبرّؤ من هذا التعاطف. وغالبًا ما كان حوارنا يُوجَّه في هذا الاتجاه. أخيرًا لم يعد بإمكاني أن أكفّ عن التفكير في سبب هذا الإلحاح الغريب والمَرَضيّ تقريبًا.

استمر ذلك بضعة أيام، خمسة أو ستة، دون أن تُفصِح أيُّ كلمة من كلماتها عن السبب الذي كان يجعل من موضوع محادثتنا شيئًا مهمًا بالنسبة إليها. لكنّي سرعان ما ظفرت بهذا السبب حين أعلمتُها ونحن نتنزّه ذات يوم بأنّ إقامتي هنا قد شارفت على النهاية وأنني أنوي الانصراف بعد غد. عندئذ تغيرت فجأةً ملامح وجهها الباسم عادة ليصبح عابسا وعلى عينيها البحريتين الرماديتين عبرت ظلال سحابة.

- خسارة، مازال لدي الكثير من الأشياء التي رغبت في مناقشتها معك.

وفي نفس اللحظة غمرها نوع من الاضطراب، نوع من القلق، جعلها وهي تحكي - تبدو كأنها تفكر في شيء آخر يشغلها كليا ويبعدها عن حوارنا. ثم إن هذه الحالة من الشرود بدأت تضايقها هي نفسها. وبعد صمت مفاجئ، مدّت لي بغتة يدها معلنة:



- أجدني عاجزة عن التعبير بوضوح عما أريد، لذلك أَفَضِّل أن أكتبه إليك.

وبخطوات أسرع من تلك التي ألفتها عندها، غادرت في اتجاه الفندق.وبالفعل، فعند المساء، قبل العشاء بقليل، وجدت في غرفتي رسالة كُتبت بخطّ واضح وجليّ. للأسف، لقد كنتُ مستهترًا تجاه الرسائل التي كانت تردني في سنوات شبابي إلى درجة أني لا أستطيع أن أعيد نص رسالتها بحذافيره -لذا فكلّ ما أستطيعه هو الاكتفاء بتلخيص فحواها- وقد طلبت مني في تلك الرسالة أن آذَنَ لها بأن تقص عليّ مرحلة من حياتها.

كان هذا الحدث قديمًا، حسب ما أوردته، إلى درجة لم يعد يمثّل معها شيئا مهمّا في حياتها الحالية. ولأنّي عزمت على السفر بعد الغد، فقد صار من السهل عليها أن تحدثني عن شيء كان يشغلها ويعذبها طيلة عشرين عامًا. وتودّ أن أذهب للقائها في ساعة حدّدتها لي إن لم يكن في هذا الأمر ما يشكل عبئًا عليّ.

هذه الرسالة التي لم آتِ إلاّ على ذكر الغرض منها سحرتني بشكل لا يوصف. كتابتها بالإنكليزية منحتها الكثير من الجلاء والمضاء.لكن مع ذلك وجدت صعوبة بالغة في الإجابة ومزقت ثلاث مسوّدات قبل أن أرد:

«إنه لشرف لي أن تمنحيني كل هذه الثقة، وأعدك بأني سأجيب بصدق إذا ما سألتني. وطبعا لست في حاجة بأن أذكرك، أنك تبقين حرة في ما تريدين أن تبوحي به لي. اروي لي ولنفسك ما تريدين روايته بمنتهى الصدق. وأرجو أن تتأكدي أني أعتبر



ثقتك بمثابة تقدير استثنائي لشخصي ».

ولم تمض تلك الليلة إلاّ وقد صارت ورقتي في غرفتها، وفي صباح اليوم التالي، وجدت هذا الرد :

«أنت محق تماما، نصف الحقيقة لا يساوي شيئا، يجب أن تكون كاملة، سأستجمع كل قواي كي لا أخفي شيئا عني أو عنك، تفضل بالقدوم إلى غرفتي بعد العشاء - في سن السابعة والستين لا أستطيع أن أخشى أي تأويل خاطئ - ففي الحديقة أو بجوار الناس لا يمكنني الحديث، صدقني، لم يكن من السهل علي أخذ هذا القرار».

قبل نهاية النهار تقابلنا مرة أخرى على طاولة الطعام ، وتحدثنا بلطف عن أشياء عابرة. لكنها حين اعترضتني في الحديقة تجنبتني بارتباك واضح، وكان مشهد هروب هذه المرأة العجوز ذات الشعر الأبيض بين شجرات الصنوبر - وهي خائفة كفتاة صغيرة - من أمامي ، مؤلِـمًا ومؤثّرا في آن.

في المساء وعند الوقت المتّفق عليه، طرقت بابها فانفتح مباشرة. كانت الغرفة شبه معتمة، لا شيء يضيئُها سوى مصباح على الطاولة، يلقي قبسا من نور أصفر على الغرفة الغارقة في ظلام غسقي. ودونما حرج يذكر، تقدمت نحوي السيدة (س) وقدمت لي أريكة، ثم جلست قبالتي. كانت كل حركة من حركاتها مدروسة. لقد أحسست بذلك فعلًا. وخيّم عليّ عندئذ صمت لاإرادي، صمت يسبق حلاً في غاية التعقيد، صمت طال كثيرا... كثيرا جدا، وما كنت لأجرؤ على قطعه بالكلام لأني تأكدت أني في حضرة صراع



محموم بين إرادة قوية ومقاومة شرسة. ومن الصالون في الطابق الأرضي كانت تصلنا الأصوات الضعيفة و المتقطعة لمعزوفة فالس، وكنت أصيخ السمع بضغط ذهني كبير، كما لو كنت أريد إزالة جزء من غم ذلك الصمت. هي أيضًا بدت متأثّرة بالاستمرار غير الطبيعي لهذا الصمت، لأنها لململت فجأة شظايا ذاتها، كما لو كانت تريد أن تقذف بنفسها، ثم بدأت الحديث:

- لا أجد صعوبة إلاّ في طريقة كسر حاجز الصمت وبدء الحديث. منذ يومين وأنا أُهيّئ نفسي كي أكون صادقة وواضحة تمامًا. وأرجو أن أفلح في ذلك. ربما لا تفهم إلى حد الآن لماذا أروي لك كل هذا، لك أنت الغريب عني، لكن لا يكاد يمضي يوم، بل ساعة، دون أن أفكر في ذلك الحدث، ولك أن تصدقني أنا المرأة العجوز لو قلت لك إن استمرار نظري ثابتًا على الدوام في نقطة وحيدة في حياتي صار أمرًا لا يحتمل، لأن كل ما سأحدثك عنه يشغل مرحلة لا تتعدى أربعًا وعشرين ساعة من عمر يناهز السابعة والستين، لطالما حدثت نفسي حتى الهذيان: «ما الخطب، في ما إذا تعرض الإنسان للحظة جنون طوال هذه المدة المديدة من الزمن، للحظة واحدة فقط؟» لكن المرء لا يمكنه أن يفلت مما نسميه، وبعبارة مبهمة جدًا: الضمير. وحين استمعت إليك وأنت تشرح بكثير من الموضوعية حادثة هنرييت، حسبت أنني ربما أستطيع أن أضع حدًا لهذا الشعور اللامعقول الذي يجعلني ألتفت دائمًا إلى الماضي، ولهذه الإدانة التي لم أتوقّف عن

توجيهها لنفسي، وأنا أتساءل لو كان بمقدوري أن أتحدث بصراحة أمام أحد عن هذا اليوم الوحيد. فلو كنت كاثوليكية بدلًا من كوني أنجليكانية، لكان بإمكان الاعتراف أن يوفر لي ومنذ زمن طويل فرصةً أتخلص بها من حملي الثقيل هذا، لكنّ الاعتراف عزاءٌ مرفوض في طائفتنا الدينية، لذلك أقوم اليوم بهذه المحاولة الغريبة لأغفر لنفسي عبر ائتمانك على سري. أعرف أن هذه المسألة شخصية، لكنك قبلت عرضي دون تردد وأود أن أشكرك على ذلك.

لقد قلت لك آنفًا، إنني أودّ بكل بساطة أن أحدثك عن يوم واحد من حياتي، والباقي لا أهمية له، بل إنه مضجر بالنسبة إلى أيّ شخص سواي. لم تشهد حياتي إلى حدود الثانية والأربعين، إلا كل ما هو طبيعي. والداي كانا من أثرياء ملاك الأراضي في إسكوتلندا. وكنا نمتلك مصانع كبيرة وضيعات شاسعة، ونعيش على طريقة نبلاء بلادنا: نقضي الجزء الأكبر من السنة في أراضينا، وعند الموسم نذهب إلى لندن . وحين أدركت الثامنة عشرة تعرفت في إحدى اللقاءات العائلية على زوجي الذي كان الولد الثاني لعائلة ذائعة الصيت من آل (ر). وكان قد أدّى الخدمة العسكرية في الهند لمدة عشر سنوات. ثم ما لبثنا أن تزوجنا وعشنا على نمط طبقتنا الاجتماعية دون هم أو غم: ثلاثة أشهر في لندن، ثلاثة أشهر في أراضينا، ونقضي بقية السنة متنقلين من فندق إلى آخر في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا. لم تشب حياتنا الزوجية الطويلة أيّ لحظة من لحظات الكدر، وقد رُزقنا بطفلين صارا اليوم رجلين ناضجين.



كنت في الأربعين حين مات زوجي فجأة، لقد جلب من سنوات خدمته العسكرية الاستوائية مرض الكبد، وفقدته خلال أسبوعين فظيعين. كان ابني الأكبر قد بدأ حياته العملية، أما الأصغر فكان تلميذا بالإعدادية. وهكذا بين عشيّة وضحاها، وجدتني وحيدة كُليًّا، وهذه الوحدة كانت عذابا مريرا لي، أنا التي ألفت العيش في بيئة محبة، وبدا لي من الصعب أن أقضّي يومًا واحدًا في ذلك المنزل المقفر الذي يذكرني كل شيء فيه بخسارتي المأساوية لزوجي الحبيب. لذلك قررت أن أسافر كثيرا في السنوات الموالية، طالما لم يتزوج أبنائي. وفي أعماقي أحسست منذ تلك اللحظة بأنّ حياتي غدت خاليةً من أيّ هدف ومن أيّ فائدة. لقد رحل الرجل الذي قاسمته كلّ ساعة وكلّ فكرة لمدة ثلاث وعشرين سنة، ولم يعد ولدايَ في في حاجة إليّ. كنت أخشى أن أكدر صفاء شبابهما بمزاجي القاتم وحزني الكبير. ولم أكن أريد ذلك، ولا كانت لدي رغبة في أيّ شيء.

ذهبت في البداية إلى باريس وظللت أتسكّع بين مغازاتها ومتاحفها، لكن المدينة والأشياء كانت غريبة عني، وكنت أتحاشى الناس لأني لم أعد أحتمل نظرات الشفقة المؤدبة التي كانت تبعث عليها ملابس حدادي.

ويستحيل علي اليوم أن أستحضر كيف انقضت أشهر التطواف الحزينة والمظلمة تلك. كلّ ما أذكره أني كنت مسكونة برغبة جامحة في الموت، لكن القوة كانت تعوزني لأسارع بنفسي إلى تلك النهاية المشتهاة بكل ألم.

بعد ترملي بسنة، أي في الثانية والأربعين من عمري، وخلال هذا



الهروب غير المعترف به أمام الناس، وغير المجدي بالنسبة إليّ، وأمام الزمن الذي كان من المستحيل قتله، ذهبت في شهر مارس إلى مونتي كارلو. وحتى أكون صادقة أقرّ بأنّ السأم هو الباعث على الهروب من ذلك الخواء المعذِّب للنفس، الخواء الذي يولّد فينا الاشمئزاز، ويجدّ لأن يقع له على مخرجٍ في البواعث الخارجية الصغيرة على الأقل. وكلما كانت حساسيتي تفقد فعاليتها، كان إحساسي بالحاجة إلى إلقاء نفسي هناك يتعاظم، هناك حيث تتسارع دوامة الحياة. فبالنسبة إلى إنسان لم يعد لديه شيء عميق يؤثّر فيه، يصبح الإحساس الانفعالي بالأشياء الأخرى مُؤثّرا في أعصابه كالمسرح أو الموسيقى.

لذلك كثيرا ما كنت أرتاد الكازينو، فقد كان من المثير بالنسبة إليّ رؤية أمواج من السعادة أو الخيبة وهي ترتسم على وجوه الآخرين، في الوقت الذي كنت أعيش فيه أقصى حالات الجزر، أضف إلى ذلك أن زوجي كان يحب ارتياد قاعات اللعب، دون أن يعني ذلك أنه سطحي، وكنت أواصل الوفاء لعاداته القديمة بنوع من الورع العفوي. ومن هنا بدأت هذه الساعات الأربع والعشرون، الساعات التي كانت أكثر سخطًا من كل ثمار العالم، وعكّرت مستقبلي سَنواتٍ وسنوات.

عند الظهر تناولت الغداء مع زوجة الدوق (م)، وهي قريبة لي من جهة عائلتي. وبعد العشاء لم أشعر بأني مرهقة بما فيه الكفاية لأذهب للنوم، فدخلت عندئذ صالة اللعب مُتسكعةً -دون أن ألعب إطلاقًا- من طاولة إلى أخرى، وأنا أنظر متعبة بطريقتي الخاصة إلى الشركاء المتجمعين هناك وقد اختلط الحابل بالنابل. أقول



«بطريقة خاصة» لأنها الطريقة التي كان زوجي المرحوم قد علّمني إياها. فذات يوم شكوت من الضجر والإعياء الذي كنت أتكبّده وأنا أتفرّس هائمة في الوجوه نفسها دائمًا: العجائز اللواتي تجعدت وجوههن، يمكثن جالسات طوال ساعات قبل المجازفة برمي «شارة». هؤلاء المحترفات الماكرات، و«حسناوات» القمار في هذا الخليط الغامض الذي جاء من كل حدب وصوب، وهو كما تعلم أقل جاذبية من الرسم الذي ألفناه في القصص البائسة.

أحدثك عن عشرين سنة خلَتْ، حين كان المال الرنان والراجح هو المتداول في الصرف، وكانت الأوراق النقدية والنابوليونيات الذهبية والقطع من فئة الخمس فرنكات تزوبع مختلطة، وحين كان الكازينو أكثر إثارةً من اليوم، ففي ذلك الوقت بدّد في هذه القلعة التي أعيد بناؤها على الطراز الحديث جمهورٌ متبرجٌ من مسافري وكالة (كوك) شاراتهم بكلّ استهتار جرّاء الضجر.

ورغم ذلك لم أكن أجد - في تلك الفترة - إلا قليلًا من السحر في رتابة تلك الوجوه اللامبالية، إلى أن دلني زوجي الذي كان مولعًا بقراءة الكف على طريقة جديدة تمامًا في المشاهدة، بالطبع إنها أكثر أهمية وإثارة وسحرًا من طريقتي في البقاء متسمرة في مكاني ببلادة. هي طريقة تقضي بأن لا ننظر مُطلقًا إلى الوجه بل إلى مستطيل الطاولة فحسب، وتحديدًا إلى ذلك الحيز المحدد المركز على أيدي اللاعبين، لا شيء غير حركات الأيدي الخاصة.

لا أعرف إن حصلت لك الصدفة لمشاهدة الطاولات الخضر، لا شيء غير المستطيل الأخضر الذي تتأرجح وسطه الكرة بين رقم



وآخر كالرجل السكران، وضمن خاناته المربعة تتساقط القطعُ الفضية والذهبية المستديرة كحبات القمح عند الزرع، وبعد ذلك يحصدها ممشاط مدير القمار بضربة قاطعة كالمنجل، ويمررها إلى الرابح على شكل حزمة.

الشيء الوحيد المتغير في أفق هذا المشهد هو الأيادي. الأيادي المفتوحة المضطربة، أو المنتظرة التي تلتمس أملًا حول الطاولة الخضراء، كلّها تبدو مترصدة على حافة المغارة مستعدّة دائما لشوط لعب جديد، وكل يد تشبه كاسرا على أهبة الانقضاض. لكل واحدة شكل ولون، بعضها عارٍ، وبعضها مدجج بالخواتم والسلاسل الرنّانة. بعضها كثيف الشعر متوحش كالحيوانات، وبعضها أملس وضّاء كسمكة السلور. لكنّ توترًا أصم كان ينتابها كلها وهي تتذبذب من نفاد صبر فظيع.

وسرعان ما وجدتني أتخيّل في كلّ مرة -ودون وعي- بأنّي في حلبة سباق كُبحت فيها الخيولُ الجامحة عند الانطلاق كي لا تندفع قبل اللحظة المناسبة، فبهذه الطريقة تمامًا كانت أيادي المقامرين ترتجف، وترتفع وتشبّ كاشفةً -بأسلوب انتظارها وبطريقة التقاطها وبتوقفها- عن شخصية المقامر. الأيادي القوية تفصح عن إنسان جشع، والبليدة تعبّر عن مِتْلاف سخي، والهادئة تفصح عن ماهر في التخطيط، والمرتجفة تكشف عن مُقامرٍ هائج.

مئات من الطباع كانت تتكشّف هكذا بلمح البصر، في الحركة التي يقوم بها الواحد من أجل أخذ المال، سواء دعكه أو بعثره بنزق، أو تركه مقامر مرهق يجري بحرية على طاولة القمار وقد تجمّدت يده المتعبة.



«القمار يكشف المرء»، إنها كلمة سوقية، أعرف ذلك، لكن ما أقصده أن يد الإنسان أثناء اللعب هي مرآته التي تظهره بوضوح أكبر. لأن كلّ مدمني ألعاب الحظ أو جلّهم قد تعلموا خلال وقت قصير كيف يتحكمون في تعابير وجوههم. في الأعلى، فوق ياقة القميص يضعون قناعًا باردًا من عدم الانفعال، ويجبرون التجاعيد التي بدأت تتشكل حول أفواههم على الاختفاء. إنهم يُغيّبون انفعالاتهم بين أسنانهم المصطكة، ويسرقون من أعينهم انعكاس اضطرابهم، ويمنحون وجوههم مظهرا أملس لا تصلّب فيه، كاشفين بذلك عن لامبالاة مصطنعة ومتقنّعين بقناع الرشاقة. لكن، وبالذات لأن تركيزهم منصب بتشنج على مهمة إخفاء تعابير الوجه الكاشفة لشخصياتهم أي ملامحهم، ينسون أيديهم، وينسون أنّ هناك أشخاصًا لا يركزون إلاّ على تلك الأيدي، ويكتشفون عن طريقها كل ما يسعون إلى إخفائه في الجهة العليا بشفاه شبه مبتسمة ونظرات توحي باللامبالاة.

اليد تخون دون احتشام ما يملكونه من أسرار دفينة، فلا بدّ أن تأتي لحظة تخرج فيها تلك الأصابع المتحفظة وشبه النائمة من تكاسلها المرح، ففي اللحظة الحاسمة التي تسقط فيها كرة «الروليت» في التجويف المخصص لها، ويُعلن عن الرقم الرابح، في تلك اللحظة إذن تقوم كل واحدة من هذه الأيدي المائة أو الخمسمائة لا إراديا بحركة خاصة بها، حركة فردانية تفرضها الغريزة البدائية.

وعندما يكون المرء معتادًا على مراقبة تلك الحلبة من الأيدي، مثلي أنا المدربة منذ مدة طويلة بفضل نزوة زوجي، فإنّ طبائع



جديدة ستتعرّى أمامه على الدوام، طبائع أكثر إثارة من المسرح ومن الموسيقى.

لا أستطيع أن أحدّثك بالتفصيل عن آلاف الحالات التي تمرّ بها الأيادي أثناء اللعب، بعضها همجية متوحشة بأصابع كثيفة الشعر ومعقوفة تختطف المال على طريقة العنكبوت، وأخرى نزقة مرتجفة بأظفار شاحبة تكاد لا تجرؤ على لمس المال. نبيلة أو دنيئة، شرسة أو خجول، ماكرة أو شبه متلعثمة، إنها لكل واحدة طريقتها في التفرّد بشكل خاص، لأن كل زوج من هذه الأيدي يعبّر عن حياة خاصة، باستثناء أيدي مديري اللعب الذين يبلغ عددهم الأربعة أو الخمسة. تلك آلات حقيقية، بدقتها الوظيفية والحيادية تمامًا في مقابل حياة سابقاتها الثائرة. إنها تعمل كما تعمل المسننات عند اصطكاك فولاذ دائرة العدّاد. لكنّ تلك الأيدي غير المبالية نفسها تولّد بدورها تأثيرًا مدهشًا من خلال التضاد الذي تكوّنه مع نظيرتها الشرهة المضطربة: إنها ترتدي - إذا جازت العبارة - لباسًا موحدًا مستقلًا، كرجال شرطة ضمن اضطراب شعب حلت به الفتنة واشتعل حماسه. أضف إلى ذلك المتعة الشخصية التي حصلت عليها لاطلاعي على عادات بعض الأيدي وانفعالاتها بعد انقضاء عدة أمسيات، فما هي إلا أيام معدودات حتى اكتسبتُ خبرات جديدة، فصرت أصنّفها كما أصنف الكائنات البشرية بين لطيفة وسمجة. عدد منها كان يكدرني بفظاظته وخشونته فيجعلني أصرف نظري عنها مثلما أصرف نظري عن شيء فاحش.

ولكن كل يد جديدة تظهر على الطاولة كانت بالنسبة إليّ حدثًا



يثير الفضول: أحيانا أنسى النظر إلى وجه صاحب اليدين الذي يكون في العادة مثبتا فوق العنق دون حراك مثل قناع اجتماعي بارد، فوق قميص «سموكينغ» أو فوق رقبة بضة.

في ذلك المساء إذن، عند دخولي إلى الكازينو وبعد مروري أمام طاولتين مزدحمتين جدًا واقترابي من الثالثة، في اللحظة التي كنت أهيّئ فيها ثلاث قطع ذهبية، سمعت بتعجّبٍ، في تلك اللحظة من الصمت المطبق الذي يسوده التوتر، وهو ما يحصل دائمًا عندما تكون الكرة المستديرة غير مستقرّة بعد، وهي تتذبذب بين رقمين فقط، سمعت قبالتي بالضبط ضجيجا متميزا، صريرا وفرقعة، كما لو كانت مفاصل عظمية بصدد التكسر، فنظرت دون شعور إلى جهة الطاولة الأخرى. وهلعتُ لما رأيتُه حقًّا، فقد شاهدتُ يدين لم يسبق لهما مثيلٌ على الإطلاق، يدًا يمنى ويدًا يسرى وقد تعالقت الواحدة منهما بالأخرى تعالق حيوانين في صراع محموم بطريقة فيها من الشراسة والتشنج ما يجعل مفاصل أصابع اليد تطقطق بصوت جاف كذلك الصادر عن جوزة عند كسرها.

كانتا يدين نادرتي الجمال، طويلتين، ونحيفتين على نحو خارق، ومع ذلك فإنّهما متصلّبتان. يغمرهما بياض شديد، وفي طرفيهما أظفار لؤلؤية رقيقة الاستدارة. وهكذا قضيت كامل السهرة وأنا أنظر إلى هاتين اليدين المتميّزتين الفريدتين، أنظر إليهما بتعجب متجدّد. لكن ما أذهلني بشكل مرعب هو اضطرابهما، تعبيرهما الهائم بجنون، هذه الطريقة المتشنجة في تعالقهما وتصارعهما. وهنا فهمت في الحال أنّه كان رجلًا يطفح بالقوة، تلك القوة الّتي تُكثّف كلّ شعوره في



أطراف أصابعه كي لا تفجّر كيانه بأسره.

والآن ...، في اللحظة التي وقعت فيها الكرة في التجويف دون صدى أو رنين، وأعلن مدير اللعب عن الرقم الفائز.. في هذه اللحظة انفصلت اليدان الواحدة عن الأخرى مثل حيوانين صُرعا برصاصة واحدة.

لقد سقطتا معا ميتتين فعلاً، لا فقط منهكتين. سقطتا بتعبير واضح عن الانهيار والخيبة، محطمتين وخائرتين بشكل تعجز كلماتي عن وصفه. فلم يسبق لي من قبل -ولا بعد ذلك- أن رأيت يدين على تلك الدرجة من الفصاحة، فكل عضلة فيهما كانت فمًا ينطق بالانفعال الخارج من كيانهما بوضوح شديد.

وللحظةٍ بقيتا ممددتين على البساط الأخضر، كسمكتين لفظتهما مياه البحر، سمكتين مترسبتين على الشاطئ، خائرتين دون حراك. ثم أخذت اليمنى منهما تحرك أطراف أصابعها. ارتعشت، وانثنت، والتوت حول نفسها. ترددت، ورسمت دائرة، ثم تحرّكت بعصبيّة وسحبَتْ «فيشة»، وأدارتها مثل عجلة صغيرة بين الإبهام والسبابة بحركة مرتبكة، وبعد ذلك تحدبت كنهد مهتاج، وقذفت بل بصقت «الفيشة» ذات المائة فرنك التي كانت تمسكها وسط المربع الأسود، وفي الحال سرى الاضطراب إلى اليد اليسرى وكأن إيعازًا قد وجه إلى تلك اليد التي كانت هامدة، فثارت، وانسابت، وتمددت ببطء. ثمّ أخذت الاثنتان ترتعشان متجاورتيْن وكأنّهما فكّان يصطكان من رعشة الحمى، كانتا تنقران الطاولة بظاهر أصابعهما دون أن تصدرا ضجيجًا.



لا..لا.. لم أشاهد إلى حد تلك اللحظة يَديْن بتلك التعابير الناطقة بشكل خارق، ولا اهتياجا وضغطا بمثل ذلك التشنج. أمّا ما تبقّى تحت هذه القبّة الكبيرة فلا خروج فيه عن المألوف من الهمسات التي كانت تعج بها الصالات، وصرخات مديري القمار الصاخبة، وذهاب الناس وإيابهم، وكرة «الروليت» نفسها وهي تقفز كالمهووسة داخل قفصها الدائري ذي الأرضية اللماعة.

هذه التعابير المؤثّرة، التعابير المتشابكة والمتعاقبة دون انتظام، التعابير المرهقة للأعصاب، كانت تبدو لي كلّها مفرغة من أيّ معنى مثل ميت في ثلاّجة، مقارنةً بهاتين اليدين المرتعشتين اللاهثتين، وقد اضطربت الحياة فيهما من وطأة الانتظار.

هاتان اليدان سحرتاني وهما تستأثران بكل اهتمامي.

لكنني في النهاية لم أستطع المقاومة أكثر: كان لا بد لي أن أرى الرجل، أن أرى وجه صاحب هاتين اليدين السحريتين، وبلهفة (أجل بلهفة حقيقية، لأن هاتين اليدين أرعبتاني) زحف بصري ببطء على طول كُمّي القميص، وصولاً إلى كتفيه الضيقتين. ومن جديد وثبتُ وثبة مذعورة لأن ذلك الوجه كان يتكلم بنفس اللغة الطلقة المهتاجة التي كانت تنطق بها هاتان اليدان، وكانَ يحمل نفس تعبير العناد الرهيب، ونفس الجمال الرقيق بشكل يكاد يكون أنثويًّا. لم أر في حياتي وجهًا كذاك الوجه، ملتصقًا بهذه الشخصية ومنفصلًا عنها في آن، ليعيش حياته الخاصة وينغمس في الاحتدام الكامل. كانت فرصةً رائعةً كي أتفحصه على مهل كما أتفحص قناعًا أو تمثالًا لا يبصر: تلك العين، تلك العين المعتوهة لم تكن لتستدير يمنة ولا



يسرة، لم يكن هذا إلا للحظة. كان البؤبؤ المتصلب الأسود بمثابة كرة زجاجية لا حياة فيها تحت هذه الأجفان المتوسعة، لكأنه انعكاس لتلك الكرة الأخرى بلون أخشاب شجرة الكاجو التي كانت تتدحرج وتقفز بجنون وبطء في حوض «الروليت» الصغير. ينبغي أن أكرّر مرة أخرى أنّي لم أر في حياتي وجهًا مهووسًا وجذّابًا إلى هذا الحد.

كان وجه فتى شاب في حدود الرابعة والعشرين من العمر، رقيقًا ناعمًا تظهر عليه سمات الخيبة ولكنه معبّر جدا. ومثل يديه لم يكن في أوصافه شيء يوحي بالفحولة. كانت كلها أوصاف طفل يلعب بشغف: لكني لم ألحظ هذه الأوصاف إلاّ فيما بعد، لأنّ هذا الوجه كان يختفي كليا في تلك اللحظة خلف تعبير صادم من الشراهة ومن الشغف اللامتناهي باللعب.

فمه الصغير والمتّقد ينفرج نصف انفراجة عن أسنان، يمكن للمرء أن يشعر بها وهي تصطك بحرارة، بينما بقيت شفتاه جامدتين وبارزتين.

تلتصق بجبينه خصلة نديّة من شعره الأشقر اللمّاع، وتتدلى على ذؤابته كشخص بصدد السقوط، ويرتسم حول منخاريه اختلاج متواصل مثل موجات صغيرة لا مرئية تتحرك تحت الجلد. وهذه الرأس المتدلية إلى الأمام تنحني شيئا فشيئا بشكل لاشعوري، حتّى يخيل إليك أنّها منجرفة إلى دوامة الكويرة الصغيرة، حينها فقط فهمت سرّ تشابك اليدين بهذا التشنّج الفضيع، وكأنّ الجسد الذي انتُزع من مركز جاذبيّته لم يبق محافظا على توازنه إلاّ بفعل ذلك الضغط المضاد.



لم يحدث مُطلقًا – يجب أن أعيد ذلك مرارا وتكرارا – أن رأيت وجها يتدفق منه الشغف بمثل ذلك الجلاء، بمثل بتلك البهيمية في عريها الوقح، فظللتُ أحدق فيه بكلّ جوارحي، أحدّق في هذا الوجه... مسحورة منبهرة مثله وكأنّ نظراتي صارت انعكاسًا لنظراته التي غدت بدورها انعكاسًا لاهتزاز الكرة وتحرّكاتها المختلجة في دورانها.

وانطلاقا من تلك اللحظة لم أعد ألحظ شيئا في القاعة: كل شيء صار يبدو لي كامدًا باهتًا، كل شيء أصبح قاتمًا بالمقارنة مع الاتقاد المنبثق من ذلك الوجه. ودون أن أنتبه لأيّ شخص آخر غيره، ظللت ما يقارب الساعة وأنا أرقب ذلك االرجل الوحيد وكل حركة من حركاته.

تلألأ في عينيه نور شرس، وتبدد فجأةً تشنّجُ يديه، كما لو كان ذلك بفعل انفجار. تباعدت أصابعهما بعنف، وهما ترتعشان عندما دفع مدير القمار نحو حضنهما الشره عشرين قطعة ذهبية . وفي هذه اللحظة، أشرق الوجه فجأةً، وصار أكثر شبابا. اختفت التجاعيد وبرقت العينان، وصار الجسد المائل إلى الأمام منتصبًا، واضحًا، وخفيفا. صار مرنا مثل فارس مأخوذ بإحساس النصر: وأخذت الأصابع تهسهسُ القطع الذهبيّة المستديرة بحبّ وخيلاء، كان يجعلها تنزلق الواحدة على الأخرى، ويُرقصها مستمتعًا برنينها مثل طفلٍ يستمتع بلُعبته. ثمّ أدار رأسه مُجدّدًا، وتملى البساط الأخضر في انشغال، كما لو كان له منخارا كلب صيد صغير، منخاران شمّامان يقتفيان الأثر الأمثل. وفجأةً وبحركة سريعة ونزقة



سكب حفنة القطع الذهبية كلّها على أحد المستطيلات. وفي الحال، عاد إلى وضعية المتربص ذاتها، و إلى التوتر الشديد ذاته، وصدرت عن الشفتين مرّةً أخرى تلك التموّجات بذبذباتها الكهربائية.

ومن جديد تقلصت اليدان ، واختفى وجه الطفل خلف انشغال الرغبة، إلى أن جاءت الخيبة كالانفجار لتطمس هذا الانقباض وذلك الضغط: الوجه الذي كان للحظةٍ أقربَ ما يكون إلى وجه طفل، ذوى وصار شاحبًا هرِمًا ، والعينان صارتا كئيبتين ومُطفأتين.

حصل كل ذلك في ظرف ثانية واحدة ، في الوقت الذي كانت فيه الكويرة تستقر على رقم لم يختره. لقد خسر إذن : ظلّ لبعض الثواني يحدّق إلى الرقم بهيئة الأبله، وكأنه لم يكن يتصور ذلك. وسرعان ما استفاق مع أوّل نداء لمدير القمار، فاختطفت أصابعُه - كما لو وقع تحفيزها بضربة سوط- بعض القطع الذهبية من جديد. لكن من الواضح أنه افتقد الثقة، فلقد اختار في البداية وضع القطع في خانة، وسرعان ما غير رأيه ليختار خانة أخرى ، وفي الوقت الذي كانت فيه الكويرة بصدد الدوران، رمى سريعا وبيدين مرتعشتين ورقتين نقديتين مغضنتين في الخانة كما لو كان يخضع لإلهام فجئي.

دام هذا التناوب، وهذا الانتقال المتلجلج من الخسارة إلى الربح ومن الربح إلى الخسارة، زهاء ساعة بلا توقف، ساعة كاملة أو تكاد، لم تنقطع خلالها نظراتي المفتونة لحظةً واحدة عن ذلك الوجه المتحول، الوجه الذي كان يمرّ في حركة مدّ وجزر بكلّ أشكال الانفعال، ولم



تفارق عيناي تيْنكَ اليديْن السحريّتيْن، فكلّ عضلة منهما تعكس الاندفاع الجامح نزولاً وصعودًا على طريقة نافورة الماء.

لم يحدث لي أبدا وأنا في المسرح أن نظرت إلى وجهِ مُمَثِّلٍ بذلك القدر من الاهتمام الذي تأملت به ذلك الوجه، والألوان المتبدّلة والمشاعر المتقلبة تتعاقب عليه بلا توقّف حسب الظرف، تعاقبَ الأنوار والظلال في مشهد طبيعي. ولم تستغرقني أيّ صورةٍ من قبل مثلما استغرقتني هذه الصورة العاكسة لهذا الانفعال الغريب. ولو أن أحدًا كان يراقبني في تلك اللحظة، لاعتبر بالتأكيد تركيزي عليه بتلك النظرة الفولاذية نوعًا من الانجذاب المغناطيسي، وهذا تماما ما كانت تشبهه حالة الذهول التام التي كنت عليها: كنت عاجزة عن تحويل نظري بعيدًا عن لعبة التعابير تلك، وكل ما كان يحدث من فوضى داخل القاعة، فوضى الإنارة والضحكات والذوات البشرية والنظرات، كان يطوف حولي كشيء لا شكل له، كدخان أصفر يظهر في وسطه هذا الوجه شعلة بين الشعلات.

لم أكن أسمع شيئا، لم أكن أشعر بشيء، لم أكن أرى الأشخاص الذين يزدحمون حولي، ولا الأيدي الأخرى الممتدة فجأة كالهوائيات لترمي النقود أو لتجمعها في شكل حفنات، لم أكن أشاهد الكويرة، ولا كنت أسمع صوت مدير القمار، ومع ذلك كنت أرى - مثلما يحدث في الحلم - كل ما يجري مُضّخمًا ومُكبّرًا بالتأثّر والحماسة في المرآة المقعّرة ليديه. لم أكن في حاجة إلى متابعة الكويرة لأعرف ما إذا سقطت في الخانة الحمراء أم السوداء؟ ما إذا كانت تتابع دحرجتها أم توقفت؟ لم أكن في حاجة إلى مشاهدة الروليت: كلّ



مرحلة، ربح أو خسارة، أمل أو خيبة، كانت تنطبع في قسمات أعصابه المتوقّدة، وتعابير هذا الوجه الذي يهيمن عليه الشغف. لكنّ لحظةً رهيبةً حصلت عندئذ، كنت أنا نفسي أتحسّب لها طيلة الوقت في سرّي، لحظة مرت كعاصفة نابضة فوق أعصابي المهتاجة إلى أقصى الحدود وجرفتها في ثورانها. فمن جديد رقدت الكويرة في مستقرها المستدير مُصدرةً نقرات خافتة كرقّاص الساعة. ومن جديد تردد وجيب تلك اللحظة التي انحبست خلالها أنفاس مائتي شفة بأكملها، حتى جاء صوت مدير القمار مُعلنًا هذه المرة: «صفر»، وفي الوقت ذاته انطلق ممشاطه لجمع القطع الرنانة والأوراق المدعوكة من كل جهة. حينئذ بدرت من هاتين اليدين المتشنجتين حركة مرعبة يعجز الوصف عنها، وثبتا -إن صح التعبير - كي تلتقطا شيئًا لم يعد موجودًا ، ثمّ ارتدّتا شبه محتضرتين على الطاولة لتصيرا كتلة جامدة. وفجأةً استعادتا الحياة مرة أخرى، وركضتا بحماسة من الطاولة إلى الجسم الذي تنتميان إليه، وتسلقتا جذعه كقطّين بريّين، وأخذتا تبحثان بعصبية في كل الجيوب، فوق وتحت، يمينًا ويسارًا، وهما تحاولان التثبّت - كالجائع الباحث عن قطعة خبز أخيرة - ما إذا كانت هناك قطعة نقديّة منسية في مكان ما. وفي كلّ مرة كانتا تعودان فارغتين ، وفي كلّ مرّة تعاودان بحثهما الفاشل وغير المجدي بتفانٍ أكبر، في حين عاد دولاب الروليت للدوران من جديد وعاد اللاعبون الآخرون للعب، وتواصل رنين القطع النقدية وتحرك الكراسي، وعمّت القاعة آلاف الأصوات المتداخلة الخافتة بضوضائها.



كنت أرتجف منتفضة من الهلع، إذ كنت أساهم في كل هذه المشاعر بشكل لا إراديّ، كما لو كانت أصابعي هي التي تفتش بيأس طمعًا في أيّ قطعة نقدية! وفجأةً وقف الرجل في ارتجاج عنيفٍ قبالتي، كمن غمَره الإحساس بالألم فانتصب كي لا يختنق. وخلفه تدحرج الكرسي مُصدرًا صوتًا مكتومًا، لكن الرجل ابتعد بخطى متثاقلة عن الطاولة دون أن ينتبه إلى الكرسي ولا إلى جيرانه الذين كانوا يبتعدون بتعجب عن هذا المترنح.

وأمام هذا المشهد وجدتُني متحجّرةً من فرط الذهول، لأنني فهمت في الحال إلى أين كان يمضي ذلك الرجل: إلى حتفه. شخص ينهض بتلك الطريقة لن يقصد بالتأكيد نزلاً أو ملهى ليليًّا، أو امرأة، أو مقصورةً في قطار، ولا أيّ مظهر من مظاهر الحياة، إنّما كان يندفع مباشرةً إلى العدم. بل إنّ أيّ إنسان عديم الإحساس في تلك القاعة الجهنمية، كان سيعرف بالضرورة أنّ هذا الكائن لم يعد له أيّ سند، لا بنكَ، ولا بيتَ، ولا عائلة. لقد قامر هنا بكلّ ما بقي لديه من مال، بل بحياته كلّها، ولم يبق له الآن سوى أن يجرّ خطواته المترنّحة بعيدًا، إلى أي مكان كان، ولكن بالتأكيد خارج الحياة.

لطالما خشيت -ومنذ الوهلة الأولى انتابني هذا الشعور الغريب- أن يتعدّى الرهان في هذا الكازينو، مجرد الربح والخسارة، ومع ذلك أحسست بصاعقة سوداء تنفجر في داخلي عندما لمحتُ الحياةَ تفارق عيني هذا الرجل والموتَ يصبغ وجهه الداكن الذي كان يضجّ بالطاقة والانفعال. ودون أن أشعر، بدأت تغمرني حركاته المترنّحة حتّى ألفيتُ نفسي مُستندةً إلى يدي، ففي الوقت الذي كان

يغادر خلاله المكان بمشقّة سرت مشيته المرتبكة إلى كياني كما سرت حماسته المتوقّدة من قبل في عروقي وأعصابي.

بعد ذلك حدث شيء أكبر من قدرتي على المقاومة، شيء سلبني إرادتي وسحبني من ذاتي دون أن أشعر، فتحركت قدماي للّحاق بهذا الرجل. لم أكن أنا من أصدر القرار، بل كائنٌ في داخلي أملى عليّ الأمر. ودون الانتباه إلى أي شخص ، أو الوعي بحركاتي عدوت نحو البهو للخروج.

كان حينها في غرفة الملابس، وقد جلب له الخادم معطفه، لكنّ يديه ما عادتا تطاوعانه ليتمكّن من ارتدائه، فرضخ الخادم لمساعدته -وكأنّه يساعد معوقا- على تمرير يديه في الكمين بعناء.

رأيته يُدخل أصابعه إلى جيب صداره ويتلمّسه إلى آخره ليقدّم له بعض «البقشيش»، لكنّها كانت تخرج خاوية في كلّ مرّة. وفجأة بدا وكأنه تذكر كلّ ما حصل للتوّ، فغمغم بكلمات محرجة نحو الخادم ، واعترته مُجدّدًا اهتزازة فجئية إلى الأمام جعلته ينزل درجات الكازينو مرنّحًا كالسكران. أمّا العامل فقد ظلّ ينظر إليه بسخرية واحتقار قبل أن يستوعب ما حدث له.

كان ذلك المشهد مؤثرًا إلى درجةٍ جعلتني أخجل من وجودي هناك، فأشحت بوجهي عن تلك المأساة البائسة لهذا الغريب وكأنّني كنت أتابعها من داخل أحد المسارح، ومرّةً أخرى دفعني هذا الرعب غير المفهوم إلى اللحاق به. فأخذت ملابسي بسرعة، وبشكلٍ غريزي، دون أن أفكر في أيّ شيء، اندفعت في الظلام مقتفيةً خطى ذلك الرجل.



(3)

قطعت السيدة «س» حكايتها للحظة. وقد مكثت قبالتي، طوال الوقت، على مقعدها بلا حراك، تتكّلم دون انقطاع، تقريبا، بهدوئها ووضوحها المميزين، وبطريقة لا يتقنها إلاّ من استعدّ جيّدًا ورتب الأحداث بعناية.

وهي المرّة الأولى التي تتوقف فيها عن الكلام متردّدة، قبل أن تترك قصتها جانبا، وتتوجّه إليَّ بالحديث فجأة:

لقد عاهدتك وعاهدت نفسي ـ قالت بشيء من القلق ـ على رواية ما حدث بكلّ أمانة، وأطلب منك، في المقابل، أن تثق في صدقي وألاّ ترجع سلوكي إلى دوافع خفية لعلّها ما كانت لتخجلني اليوم، لكنّ افتراضها، في هذه الحالة، خاطئٌ تماما. ولِذا أؤكّد أنّني لم أكن ـ مثلا ـ واقعة في غرام ذلك المقامر البائس، حين تبعته إلى الشارع ولا فكرت فيه كما تفكر امرأة في رجل، فقد تجاوزت الأربعين ولم أتطلّع إلى رجل منذ وفاة زوجي. و هي مسألة محسومة بالنسبة إليّ.

هذا ما توجّب قوله، وقد صارحتك به حتّى تتمكّن من الوقوف على فظاعة ما سأرويه لاحقا.

ومن جهة أخرى سيكون من الصّعب حقّا وصف الشّعور الّذي أجبرني على اللّحاق بذاك المسكين، وصفا دقيقا. فقد كان شعورا



بالفضول يطغى عليه خوف رهيبٌ، أو لنقل خوف من شيء رهيب، أحسست به، منذ اللحظة الأولى، يتلبّد كغيمة فوق هذا الشاب.

لكنّ المرء يعجز عن تحليل مثل هذه الانطباعات أو شرحها لشدة تشابكها السّريع والعفويّ. ولعلّ ما قمت به لم يكن سوى تصرّفٍ غريزيٍّ محضٍ، كأن نمسك طفلا يهمّ بالارتماء تحت عجلات سيّارة وسط الطريق. وإلاّ فكيف نفسّر ما يُقدم عليه أشخاص لا يجيدون السباحة، عندما يقفزون من فوق جسر لإنقاذ إنسان يغرق؟

إنّما هي، ببساطة، قوّة سحرية تقودهم، وإرادة تدفعهم إلى رمي أنفسهم في الماء، قبل أن يجدوا الوقت للتفكير في المجازفة التي أقدموا عليها.

وهكذا دون تفكير أو وعي، تبعت ذلك البائس من قاعة القمار إلى باب الخروج، ومن الباب إلى الباحة.

وإنّي لواثقة من عجزك وعجز كلّ مبصرٍ بعينيه، عن انتزاع نفسه من هذا الفضول النّهم، فلا يمكن تصور مشهد أكثر مدعاة للرثاء من مظهر شابٍّ لم يتجاوز الأربع والعشرين سنة، وهو يجرّ نفسه بإعياء عجوز، من المدرّج نحو الباحة و يترنّح كثمل محطّم الأطراف.

لقد ترك جسده المثقل يهوي على أحد المقاعد الخشبيّة مثل كيس، وهذا ما جعلني أرتعد وأحسّ، ثانية، ببلوغه آخر المطاف. فلا يسقط بهذه الطريقة إلاّ ميّت أو شخص فقد كلّ عضلاته الحيّة: كان رأسه يرتخي إلى الوراء على مسند المقعد، ويداه تتدلّيان إلى الأرض جامدتين.



وفي نصف العتمة التي تخلّفها شعلة الفوانيس النائسة، كان لكلّ عابر أن يعتقد نفسه في مواجهة رجل مصاب بطلق ناريّ.

وأمام هيأته تلك، قفزت إلى ذهني، فجأة، فكرة لم أفهم كيف تشكّلت، ولا كيف استقرت بوضوح تام وواقعية مفزعة جعلت قناعتي عمياء بأنّه كان يحمل في جيبه مسدّسا. وأنّه في الغد، سيتم العثور على جسده ممددا فوق ذات المقعد الخشبيّ أو فوق آخر، مغمورا بالدماء وقد فارقته الحياة. ففي الحالة التي آل إليها كان أشبه بصخرة تسقط في الهاوية ولا يمكن أن تتوقف قبل أن تبلغ القرار.

لم أر في حياتي، قطّ، حركة جسد تنمّ عن ذلك القدر من اليأس والإعياء.

ولك الآن أن تتخيل موقفي وأنا على مسافة عشرين أو ثلاثين خطوة خلف المقعد الخشبيّ الّذي يجلس عليه الرجل الجامد المنهار، دون معرفة ما يتوجب عليّ فعله، فمن جهة تدفعني الرّغبة في إنقاذه، ومن جهة أخرى يثنيني الخوف من التّحدّث في الشارع إلى غريب، ذلك الخوف الذي ترسخ فينا بحكم التّربية والتّقاليد.

كانت قناديل الغاز تبثّ نورا خافتا في السماء الغائمة، والقليل المتبقّي من المارّة كانوا يسرعون، وقد أوشك الليل على الانتصاف، فبقيت في الحديقة العمومية وحدي، تقريبا، مع هذا الرجل الذي يبدو كمنتحر.

استجمعت شجاعتي مرارا وتكرارا، وتقدمت نحوه لكنّ الخجل كان يصدّني في كلّ مرّة، أو لعلّها تلك الغريزة وذلك الإحساس العميق الذي يحذّرنا ممن يسقطون لأنّهم، في الغالب، يسحبون معهم



كلّ من يهبّ إلى نجدتهم.

وفي غمرة هذا التّردّد، لمست بنفسي جنون الموقف وسخريته، وما كان بإمكاني الكلام ولا المغادرة، ولا إتيان أيّ فعل، ولا تركه. وأرجو أن تصدقني إذا قلت لك إنني بقيت، ربّما، لساعة في تلك الحديقة أروح وأغدو دون اتخاذ قرار، ساعة لا نهاية لها، كانت خلالها أمواج البحر المتواري عن الأنظار، تقضم الوقت بتلاطمها المتواتر الخفيف. و كلّ هذا لشدّة ارتباكي وتأثّري أمام صورة كائن بشريٍّ وهو يتحطم كليّا.

لقد فقدت شجاعتي على الحديث وقدرتي على التصرّف، وكان من الممكن أن أقضي النّصف المتبقّي من الليل على ذلك المنوال، أو أن تجعلني أنانيّة أكثر حسمًا أعود إلى بيتي.

بل أعتقد أنني عزمت على ترك صندوق البؤس ذاك إلى قدَره، عندما تغلّب شيء ما أقوى مني على تردّدي. ثم أخذ المطر يتهاطل، وقد لبّدت الريح فوق البحر، أثناء المساء، سحبا ربيعيّة مشبعة بالبخار تجعل المرء يشعر بثقل السماء وغطرستها مما يصيب قلبه ورئتيه.

وانكسرت على الأرض، فجأة، قطرة ماء انهمر المطر بعدها سيولا تزخّها الرّيح. فلجأتُ، دون تفكير، إلى سقيفة كشكٍ وقد نشر النّوء رذاذه على كامل فستاني رغم أنّ مطريّتي كانت مشرعة. بل وأحسست، في وجهي ويديّ، بملمس الغبار البارد الّذي أثارته حبّات المطر وهي تسقط مفرقعة على الأرض.

كان مشهدا مرعبا مرّت عليه عشرون سنة وما تزال حنجرتي



تنقبض إلى اليوم لمجرّد التفكير فيه. فقد بقي ذلك البائس، رغم غزارة الأمطار، جامدا على مقعده الخشبيّ دون أن يحرّك ساكنا. وكانت المياه تتدفّق من كلّ المزاريب، وهدير السيارات القادم من المدينة يتهادى إلى الأسماع، ومارّة يركضون على اليمين واليسار بمعاطف مرفوعة الياقات، وقد أخذ كلّ كائن حيّ يتضاءلُ ويهرب خائفا للبحث عن ملجإٍ. وكان الرّعب من عنصر الطبيعة الهائج باديا على كلّ الناس والدوابّ، إلاّ تلك الكتلة البشريّة السّوداء الّتي لم تتحرك قيد أنملة، وهي ماكثة في مكانها.

وقد أخبرتك سابقا أنّ هذا الرجل يمتلك قدرة تعبير سحريّة عن مشاعره بالحركة والإيماءة. فلا شيء، لا شيء على وجه البسيطة يمكنه تجسيد ذلك اليأس وذلك التخلّي التامّ عن الذّات، وذلك الموت الحيّ، وبتلك الطريقة المدهشة. سوى ذلك الجمود وتلك القدرة على البقاء جالسا دون حراك، فاقدًا إحساسه تحت وابل الأمطار، وذلك العجز عن الوقوف والتّقدّم بضع خطوات للاحتماء بأي سقف، وتلك اللامبالاة المفرطة تجاه كينونته.

لم يستطع أيّ نحّات أو شاعر، لا «ميكيل أنجيلو» ولا «دانتي» أن يصوّر لي حالة اليأس القصوى ولا قمة بؤس الأرض، بطريقة أكثر تأثيرا وقوّة مما فعله ذلك الكائن المنهك وغير المستعد للقيام بأي حركة، تاركا نفسه يغرق في الطوفان العاصف.

كان الأمر شديدا عليّ، ولم أستطع التحمل أكثر، فقفزت عابرة سياط المطر اللاّذعة، لأهزّ ذلك الصندوق البشريّ المتصبب ماءً فوق مقعده.



- «تعال»، قلت له وأنا أسحبه من ذراعه.

فثبّت ذلك الشيء المبهم نظره عليّ في قلق، وأرادت حركة ما أن تنمو داخله ببطء لكنّه لم يستوعبها.

-«تعال»، صحت هذه المرّة شبه غاضبة، وأنا أشدّه ثانية من كمّه المبلّل.

فنهض بتكاسل وإرادة مسلوبة وهو يترنّح ثم سألني:

-«ماذا تريدين»؟

لم أجد حينها جوابا لسؤاله، فأنا نفسي لم أكن أعرف إلى أين أذهب معه ولا كنت أرمي إلى شيء غير انتشاله من تلك الزخّات الباردة، وتلك اللاّمبالاة الانتحارية غير الواعية التي تبقيه هنا في حضيض اليأس.

فتمسّكت بذراع تلك الخرقة الإنسانيّة المسلوبة الإرادة، وواصلت سحبها نحو الكشك عسى أن تحميها سقيفته ولو قليلا، من هجمات العنصر السائل الذي كانت الريح تقذفه بضراوة.

كانت تلك هي رغبتي، ولم أكن أعرف أو أريد شيئا غيرها، وقد انصبّ كلّ تفكيري على مسألة وحيدة هي وضع هذا الرجل تحت سقف في مكان جافّ.

وهكذا صرنا نحن الاثنين جنبا إلى جنب في تلك المساحة الصغيرة المسقوفة. وكان الكشك خلفنا مغلقا، والسقف الواقي فوقنا صغيرا جدّا إلى درجة جعلت المطر المسترسل يتسلل مخادعا، ليرشقنا بقطرات من الماء البارد فيصيب ملابسنا ووجهينا حتى صار



وضعنا لا يطاق.

ولم أعد أستطيع البقاء لوقت أطول بجانب هذا الغريب المتقاطر ماء، وكان يستحيل من ناحية أخرى، أن أتركه هكذا ببساطة، بعد كلّ ما فعلته، دون التحدث إليه.

كان عليّ القيام بأمر ما، وقد توصّلت شيئا فشيئا الى فكرة واضحة، ورأيت من الأفضل أن أُقلّه في عربة إلى بيته ثم أعود إلى بيتي، وله في الغد أن يتدبّر أمره.

فسألت هذا الرّجل المتسمرّ قربي وهو يتأمّل اللّيل الغاضب:

ـ أين تقيم؟

ـ لا أقيم في أيّ مكان! لقد جئت هذا المساء من «نيس»، وليس لدّي مسكن نذهب إليه.

ولم أفهم جملته الأخيرة إلا بعد ذلك بمدّة، فقد اعتقد ذلك الرجل أنّني... أنّني إحدى العاهرات الكثيرات اللّواتي يتجوّلن ليلا حول الكازينو، أملا في انتزاع بعض المال من مقامرين أسعفهم الحظّ أو رجال تعتعهم السكر.

وما الذي كان سيعتقده، في نهاية الأمر، غير ذلك؟ فأنا نفسي مازلتُ، إلى حدّ هذه اللّحظة التي أروي لك فيها الحكاية، أحسّ بغرابة تصرّفي وخلوّه من المنطق. وأيّ فكرة أخرى كان يفترض له أن يكوّنها عنّي؟ فالطريقة التي سحبتُه بها من مقعده، ثمّ جررته بها دون تردّد لم تكن، قَطعا، طريقة سيدة محترمة.

لكنّ هذه الفكرة لم تخطر لي حينها، ولم أدرك الغلطة الكبرى التي



اقترفتها في حقّ ذاتي إلاّ بعد فوات الأوان، ولولا ذلك لما لفظت الكلمات التالية التي ما كانت إلاّ لتعزز خطأه:

-«إذن سنحجز غرفة في نزل، فلا يمكن أن تبقى هنا بل يجب أن تكون الآن في مكان آمن».

وحينها تفطّنت إلى غلطته الموجعة، فقد اكتفى بالتهكّم قائلا، دون أن يلتفت إليّ:

-«لا، لستُ في حاجة إلى غرفة. ولم أعد أحتاج شيئًا. لقد اخترتِ الشخص غير المناسب، إذ لا مال لديّ ولا فائدة تكسبينها منّي، فلا تكلّفي نفسك أيّ عناء».

قال ذلك أيضا بلهجة مرعبة ولا مبالاة مدهشة، ولقد أثّرت فيّ هيئة هذا الكائن المتقاطر ماءً وهو يستند بتلك الطريقة الرّخوة إلى جدار الكشك الهشّ، مبلّلا حتى العظام ومنهك الرّوح، إلى درجةٍ لم أجد فيها الوقت لاستيعاب الإهانة التي تعرضت إليها بحقارة وغباء.

وكان شعوري الوحيد آنذاك، هو ذاته منذ البداية، عندما رأيته يخرج مترنّحا من القاعة، وطيلة تلك الساعة الخرافية، أنّني أمام كائن حيّ، شابٍّ، مليء بالحياة وبالطاقة، يشارف على الموت ومن واجبي إنقاذه.

فاقتربت منه قائلة:

«تعال، ولا تحمل همّ الأموال، سأجد لك مكانا آمنا فلا يمكنك البقاء هنا، ولا تشغل بالك بشيء، تعال فحسب».



فأومأ برأسه ، وفي الوقت الذي كانت فيه الأمطار تدقّ حولنا طبولها التي تصمّ الآذان، والهطل يرجم أرجلنا بمياه هادرة، شعرتُ به يجهد نفسه للمرة الأولى ليتفرّس في وجهي وسط الظلام، وبدا جسده أيضا يحاول الاستيقاظ ببطء من سباته.

ـ «ليكن، كما تريدين»، قال موافقا، «لقد استوت عندي الأمور، وفي نهاية المطاف لِمَ لاَ؟ فلنذهب».

فتحتُ مطريتي فجاء إلى جانبي ومرّر ذراعه تحت ذراعي، وقد نفرتُ من تلك الألفة المفاجئة بل وأخافتني حتّى تملّك الرّعب أعماق قلبي، ولكنّني لم أجد الشجاعة لصدّه، فلو دفعته الآن لسقط في الهاوية ولذهب كلّ الجهد الّذي بذلته سدًى.

وعندما تقدّمنا بضع خطوات نحو الكازينو، وفي تلك اللّحظة وحدها، أدركت أنني لم أكن أعرف ما يجب عليَّ فعله، وقد بدا لي من الأفضل أن أقوده إلى نزل، وأدسّ له بعض المال في يده ليتمكّن من تسديد أجرة غرفته، ومن العودة في الغد إلى دياره، ولم أفكّر أبعد من ذلك.

استوقفتُ إحدى العربات الّتي كانت تمرّ حينها أمام الكازينو، فركبناها، ولم أدرِ في البداية بما أجيب عندما سألني الحوذيّ عن وجهتنا، ولكنّي حدستُ، فجأة، أنّ هذا الرّجل المبلّل حتى العظام، الذي يجلس إلى جانبي لن يكون مرحّبا به في أيٍّ من الفنادق الفخمة، ومن ناحية أخرى، وباعتباري كنت امرأة عديمة التجربة تحاول تجنّب أيّ التباس مفترض، فقد اكتفيت بالقول للحوذي:

ـ «إلى أيّ نزل صغير».



أطلق الحوذي المبلل وغير المكترث، عنان خيوله، في حين بقي الغريب الجالس قربي صامتا. وقد كانت العجلات تصدر أزيزا، والمطر يهاجم بلّور العربة بعنف، وفي فضاء ذلك المربع المظلم الشبيه بتابوت كنت كمن يرافق جثّة. فحاولت التفكير لإيجاد كلمة أخفف بها وحشة ذلك التشوّش الصامت ورعبه، لكنّي لم أفلح البتّة.

وتوقفت العربة في غضون دقائق، فبادرت بالنزول، ودفعتُ للحوذيّ أجرته، بينما كان مرافقي يغلق باب العربة في فتور.

وصرنا عندئذ أمام نزل صغير لا أعرفه، وكان ثمة فوقنا قبّة بلّورية صغيرة تحمينا من المطر الّذي يواصل تمزيق ستار اللّيل الدّاجي من حولنا، وفقدَ الغريب توازنه فاستند إلى الحائط مرغما، والمياه تسيل من قبّعته المبتلّة وثيابه الرثّة كأنها تتدفّق من مزراب، وهو هنا كالغارق الذي تمّ إنقاذه للتوّ وما يزال فكره مشوّشا وقد شكّل الماء الرّاشح جدولا صغيرا حول الرّقعة التي كان يقف فيها، لكنّه لم يقم بأدنى حركة لنفض قبّعته التي كانت تقطر بلا انقطاع فوق جبينه ووجهه، ولم يكن متأثرا البتّة في حين أعجز عن وصف تأثّري بهذا الانهيار.

ولمّا كان عليَّ أن أتصرّف وقتها، فقد فتّشت في محفظتي:

-«هذه مائة فرنك» ـ قلت ـ «ستحجز غرفة، وغدا تعود إلى نيس».

فنظر إليّ باستغراب.

«لقد راقبتك في قاعة القمار» ـ ألححت عليه بعد أن لاحظت



تردّده ـ «أعرف أنّك خسرت كلّ شيء، وأخشى أن تُقدم على ارتكاب حماقة، فلا مدعاة للخجل في قبول مساعدة، هيّا خذ».

ولكنّه دفع يدي بحيويّة لم أتوقّعها منه.

-«أنت طيّبة جدّا» ـ قال ـ «لكن لا تهدري مالك فلا شيء يمكن فعله من أجلي، ولا يهمني إذا نمت الليلة أم لم أنم، فغدا ستكون النهاية، ولم يعد ثمّة ما يمكن القيام به».

- «بل يجب أن تأخذه» ـ ألححت عليه ـ «ادخل إلى النزل الآن وخذ قسطا من الرّاحة، فالليل يجلب النصيحة، وغدا ستفكّر بأسلوب مختلف وسيتغيّر كلّ شيء».

لكنّه دفعني بشدّة أقرب إلى العنف، عندما مددت له المال ثانية.

- «لا جدوى من ذلك» ـ ردّد بصوت خفيض ـ «هذا لا يفيد في شيء، ومن الأفضل أن تتمّ المسألة في الخارج كي لا تلطخ الدّماء غرفة هؤلاء الناس، فلا يمكن لمائة فرنك ولا حتى لألف أن تساعدني، لأنّني سأعود غدا بالفرنكات التي ستبقى معي إلى الكازينو ولن أغادره حتى أخسر كل ما لديّ، ولا فائدة من المحاولة، فقد اكتفيت».

لا يمكن أن تعلم مدى تأثير صوته الخفيض في أعماق روحي، لكن تأمّل معي المشهد، فعلى بعد خطوتين منك يوجد كائن بشريّ شابّ، لامع، مليء بالحياة، موفور الصحّة، وأنت تعرف أنّك إذا لم تُسخّر كلّ جهدكَ فبعد ساعتين لن تكون هذه الزهرة الفتيّة، المفكّرة، المتكلّمة، المتنفّسة، سوى جثّة هامدة.

ولذلك انتابتني نوبة غضب، ورغبة جامحة في الانتصار على هذه المقاومة الخرقاء، فأمسكت يده وصحت فيه:

- «كفى حماقات، ستدخل النّزل وتأخذ غرفة، وسأصحبك غدا صباحا إلى محطة القطار. يجب أن تغادر هذه المدينة وتعود إلى ديارك، ولن أتراجع عن مسعاي حتى أراك تحمل تذكرتك وتصعد إلى القطار، فالمرء لا يلقي بحياته إلى الهاوية وهو شابّ لمجرد خسارته بعض مئات أو آلاف من الفرنكات، ليس هذا سوى عمل جبان و سَوْرة غضب وحنق أهوج».

- «غدا!» ـ علّق بنبرة حزينة وهازئة ـ «غدا!... ليتك تعرفين أين سأكون غدا. و ليتني أعرف أيضا. فصدقا، ينتابني الفضول حول هذا الموضوع. لا ياصغيرتي، بل عودي إلى بيتك ولا تتعبي نفسك ولا تهدري مالك».

لكنّني لم أرضخ وتلبّسني نوع من الهوس والجنون، فأمسكت يده بعنف ووضعت فيها الورقة النقدية رغما عنه.

-« خذ المال وادخل حالا»، قلت ذلك بينما كنت أتوجّه إلى الجرس وأقرعه:

- «حسن، ها قد قرعت الجرس، وسيأتي البوّاب الآن، سوف تصعد لتخلد إلى النوم، وسأنتظرك غدا عند الساعة التاسعة أمام النزل لأصحبك مباشرة إلى محطّة القطار. ولا تهتمّ بالباقي فسأقوم بما يلزم لتتمكّن من العودة إلى موطنك، أمّا الآن فنم جيّدا ولا تفكّر في شيء».



وفي تلك اللّحظة صرّ مفتاح الباب من الدّاخل وفتح لنا عامل النزل.

-«تعالي»، قال الشابّ فجأة، بصوت أجشّ ونبرة عزم وانفعال. وأحسست بأصابعه الحديديّة تحكم الوثاق حول معصمي، فتملّكني الرّعب... لقد كنت في غاية الذعر والشلل كأنّني أصبت بصاعقة أفقدتني رأسي.

وأردت حينها المقاومة والإفلات لكنّ إرادتي كانت مسلوبة، و... ستفهم ذلك... و... وقد خجلت أمام البوّاب الذي نفذ صبره من صراعي مع الغريب.

وهكذا... هكذا ألفيت نفسي داخل النزل. ووددت أن أتكلّم، أن أقول شيئا، لكنّ صوتي اختنق في حلقي، وكانت يده فوق ذراعي ثقيلة ومتسلّطة، ولم أكن واعية بما أفعل، حين أحسست بها تسحبني فوق درجات السلّم... ثمّ دار مفتاحٌ.

وفجأة وجدت نفسي وحيدة مع هذا الغريب داخل غرفة مجهولة، في نزل مازلت أجهل اسمه إلى اليوم.


مكتبة
الفكر الجديد

(4)

توقّفت السيّدة «س» من جديد، وانتصبت بغتة، كأنّها فقدت السّيطرة على صوتها. ثمّ اتّجهت صوب النافذة، ونظرت بعض الدقائق إلى الخارج في صمت، ولعلّها لم تفعل شيئًا سوى الضغط بجبينها على الزجاج البارد. فلم أكن أجرؤ على مراقبتها بدقّة، إذ يعسر عليَّ النظر إلى امرأة عجوز وهي تقع فريسة لمشاعرها.

ولذلك بقيت جالسا في صمت دون أن أطرح سؤالا أو أُصدر صوتا، وانتظرت حتى عادت بخطوات هادئة لتجلس قبالتي.

- طيّب، أرجو الآن، وقد سردت لك الجزء الأصعب، أن تصدقني حين أؤكّد لك مرّة أخرى، وأقسم لك بكل مقدّس عندي وبشرفي وبحياة أولادي، أنّ... أنّ فكرة إقامة علاقة مع ذلك الغريب لم تخامرني قطّ إلى حدّ تلك اللّحظة، وإنّي كنت مسلوبة الإرادة حقّا، فوقعت في هذا الموقف دون وعي، كأنّ فخًّا نُصب لي وسط طريق حياتي المستقيم.

وقد عاهدتك وعاهدت نفسي على الصدق، ولذا أكرّر أنّني لم أتحرّك لإنقاذ ذلك الشّاب إلاّ مُكرهة، ولم تدفعني عاطفة أخرى أو مشاعر شخصية، ولم يكن في الأمر رغبة، إنّما خضت هذه المغامرة التراجيدية ببراءة خالصة.

واعفني من سرد ما حدث داخل تلك الغرفة في تلك اللّيلة التي لم ولن أنسى منها لحظة واحدة فقد حاربت خلالها مع كائن بشريّ من أجل حياته. أجل وأكرّر أنّ مسألة حياة أو موت، كانت تكمن في ذلك الصّراع. وكان كلّ عصب من أعصابي يحسّ بلا ريب، أنّ هذا الغريب، هذا الرجل المشرف على الهلاك، كان يتشبث بآخر قشّة للنّجاة، بكلّ ما لشخص مهدد بالموت من حماس وشغف.

كان يتشبّث بي كمن يشعر بالهاوية تحته، وكنت حينها قد استنفذت طاقتي وكلّ ما بوسعي لإنقاذه. إنّ المرء لا يعيش ساعة مماثلة سوى مرة واحدة في حياته، وهي لا تحدث إلاّ لواحد من بين ملايين الأشخاص، ولولا تلك الصّدفة الرّهيبة، ما كنت أنا نفسي لأتخيّل مشهد رجل مخذول وضائع يمتصّ آخر قطرة ضوء من الحياة بيأس شديد وغضب جامح.

وباعتباري كنت بعيدة لعشرين سنة عن كل قوى الوجود الشّيطانيّة. فلم أكن أفهم الطّريقة الباذخة والعجيبة التي تكثّف بها الطبيعة، أحيانا، في بعض أنفاسٍ متسارعةٍ، كلّ ما فيها من رمضاء وجليد، ومن حياة وموت، ومن نشوة وقنوط.

كانت هذه اللّيلة حافلة بالصّراعات والأحاديث، وبالشغف، وبالغضب والحقد، وبدموع التّضرّع، وبالسُّكر، حتى خُيّل إليّ أنّها دامت ألف عام. وأننا نحن، هذان الكائنان البشريّان المشرفان في عناقهما المترنّح على أعماق الهاوية، مدفوعيْنِ أحدهما بهوس الموت والآخر بمطلق البراءة، قد خرجنا من هذا الصخب القاتل، مختلفين تماما عمّا كنّا عليه في السابق، بروح أخرى وشعور آخر.



ولن أتحدث عن ذلك، فأنا لا أستطيع ولا أريد وصفه. لكن عليَّ قول كلمة عن الدقيقة الغريبة التي استيقظت فيها، صباح اليوم التالي. فقد أفقت من نوم ثقيل، بل من ظلام عميق لم أغرق في مثله قط، واحتجت إلى وقت طويل كي أتمكّن من فتح عينيَّ، ليكون أوّل شيء ألمحه فوقي هو سقف غرفة مجهولة، ثمّ وبعد تمعّن رأيت مكانا مريعا وغريبا عنّي لا أعرف كيف وقعت فيه.

وقد حاولتُ في البداية إقناع نفسي جاهدة بأنّ ذلك لم يكن إلاّ حلما من أكثر الأحلام وضوحا وشفافية قادني إليه النّوم العميق المربك، لكنّ نور الشمس الساطع والحقيقيّ الذي يلمع أمام النوافذ كان نور الصباح بلا شكّ. وكانت ضوضاء الشارع تصعد إلى المسامع بهدير السيارات وأجراس التراموا ي، وهمهمات الناس، فتيقّنت حينها أنّني لم أكن أحلم بل كنت مستيقظة.

فانتصبت رغما عنّي لألملم شتات أفكاري، وهنا... عندما نظرت بجانبي... هنا، ـ ولن أستطيع وصف ذعري مطلقا ـ شاهدت رجلا غريبا ينام حذوي نصف عار في الفراش الواسع، رجلا مجهولا لا أعرفه.

لا... يا لذلك الفزع الّذي يصعب التعبير عنه، فقد تملّكني إلى درجة فقدتُ فيها وعيي، لكنّه لم يكن إغماءً حقيقيّا كذلك الذي ينعدم معه الشعور بما حولنا. بل على العكس، وبسرعة البرق، بدا لي كلّ شيء واعيا بقدر ما كان مُبهما. ولم أعد أرغب إلاّ في الموت اشمئزازا وخجلا من الحالة التي وجدت فيها نفسي فجأة، مع شخص غريب، على سرير مجهول، في نزل حقير ومشبوه.



ومازلت أذكر بجلاء كيف توقّفت دقّات قلبي، وكيف كتمتُ أنفاسي كأنّني أضع بذلك حدّا لحياتي، وخاصّة لوعيي الواضح وضوحا مرعبا، هذا الوعي الذي يدرك كلّ شيء ولا يفهم شيئا في الآن ذاته.

ولا أعلم كم قضّيت من الوقت ممدّدة ومتجمّدة الأطراف، على تلك الحالة التي تشبه، بلا شكٍّ، تصلّب الأموات في توابيتهم. فكلّ ما أعلمه أنّني أغلقت عينيَّ وتضرّعت إلى الله أو إلى أيّ قوّة سماويّة أخرى، ألاّ يكون هذا واقعيّا وحقيقيّا. لكنّ حواسّي المتنبّهة لم تعد تسوّغ لي الأوهام، فقد سمعتُ أشخاصًا يتحدّثون وماءً ينسكبُ في الغرفة المجاورة، وخطوات تدبّ في الخارج خلال الممرّ، وكانت جميعها مؤشّرات تثبت القسوة التي بلغتها حواسّي المتحفّزة.

ولأنّ تلك اللّحظات لا تخضع لمقاييس الحياة العادية فلا يمكنني الجزم بالمدّة التي استغرقها هذا الوضع المريع، قبل أن يتملّكني، فجأة، خوف آخر، وحشيٌّ ومرعبٌ، هو الخوف من أن يستيقظ ذلك الغريب الذي لا أعرف حتى اسمه، ويتحدّث إليّ.

وعرفتُ في الحال ألاّ منفذ أمامي سوى ارتداء ملابسي والهرب قبل أن يستفيق، حتى لا يراني أو يحدّثني بعد ذلك أبدا. يجب أن أنسحب في الوقت المناسب، وأرحل... أرحل لأستعيد حياتي الحقيقيّة بأيّ طريقة، وأعود إلى النزل الذي أقيم فيه، ثم أغادر هذا المكان اللّعين على متن أوّل قطار، وأترك هذه البلاد كي لا ألتقي هذا الرجل مجدّدا ولا أرى عينيه ثانية، وكي لا يكون ثمّة شاهد أو متّهم أو متواطئ.



تغلّبت هذه الفكرة على حالة إغمائي، فغادرت الفراش بحذر شديد وخفّة سارق، وتحسّست ثيابي ثم سحبتها وأنا أتقدّم خطوة خطوة ـ كي لا أُحدث ضجّة ـ وارتديتها بمنتهى الاحتراس خوفا من استيقاظه المباغت، وقد نجحت إذ صرت جاهزة ولم تبقَ سوى قبّعتي التي كانت على الأرض في الجهة الأخرى من السرير، وبينما كنتُ أتقدّم على أطراف أصابعي لألتقطها ـ في تلك اللحظة تحديدا ـ لم يكن باستطاعتي الامتناع عن النظر إلى وجه ذلك الرجل الذّي سقط في حياتي كما يسقط حجر من فوق إفريز.

ولم أكن أرغب سوى في إلقاء نظرة واحدة عليه، لكن... كان الأمر عجيبا، فقد كان ذلك الشاب المجهول الذي ينام هنا، شخصا غريبا عنّي حقّا، ولم أتمكّن، في البداية، من التعرّف على الوجه الذي التقيته في الليلة السابقة. وبدت القسمات المتشنّجة شغفا، والمنقبضة باختلاج، لهذا الرجل المستثار حد الموت، ممحوّة تمامًا. وقد صار له وجه آخر، طفوليّ يشعّ بالنقاء والصفاء.

فالشفتان اللّتان كانتا بالأمس مزمومتين ومشدودتين على الأسنان، تحلمان الآن، وقد انفرجتا قليلا بنصف استدارة للابتسام، وكان الشّعر الأشقر يطرح خصلاته الرقيقة على الجبين الذي زالت تجاعيده، والنّفس المتصاعد من الصدر يمر على الجسد المسترخي كموجة هادئة.

ولعلّك تتذكر ما أخبرتك به آنفا عن تعابير الشراهة وشدّة اللّهفة والشغف التي لم أشهدها مطلقا بمثل تلك الحدّة والعنف إلاّ عند ذلك المجهول الذي كان جالسا إلى طاولة القمار، والآن أقول لك



إنني لم أرَ قطّ تعبيرا مماثلا عن النقاء الخالص والنوم الهانئ حتّى عند الأطفال الذين يشعّ صفاء ملائكيّ في نومهم البريء.

كانت كلّ المشاعر ترتسم على ذلك الوجه بليونة لا نظير لها، وكانت تلك اللّحظة راحة فردوسية وتحرّرا من جميع الأوزار الباطنيّة، وخلاصًا. وأمام هذا المشهد العجيب انقشع عنّي القلق والخوف كما تنقشع سحابة سوداء، فلم أعد خجلى، بل صرت سعيدة تقريبا. وفجأة، أصبح لديّ تفسير لهذا الحدث الرهيب الغامض، وشعرت بالغبطة والفخر لمجرّد التفكير في أنّ هذا الشاب الرقيق الجميل النائم هنا في هدوء وسكينة مثل وردة، كان سيُعثر عليه لولا تفانيَّ في مكان ما فوق صخرة، مهشّما وداميا ومحطّم الوجه بعينين جاحظتين ودون حياة.

لقد أنقذته، لقد تمّ إنقاذه! وها إنّي، الآن، أنظر إلى هذا الرّجل النائم الذي أعدت إليه الحياة، نظرة أمٍّ -لم أجد تعبيرا آخر- وبألم أكبر ممّا كابدته عندما أنجبت أبنائي.

ووسط هذه الغرفة القذرة وأثاثها البالي، في نزل الزّنا هذا، الكريه والمتّسخ، غمرني فجأة (وستبدو لك كلماتي سخيفة) شعور رائع بمعجزة وتطهّر، كذلك الذي أشعر به داخل كنيسة. وقد وُلدت فيّ من اللّحظة الأكثر رهبة في حياتي -وكأخت لها- لحظةٌ ثانيةٌ أكثر قوّةً وإدهاشًا.

هل أحدثتُ ضجة؟ هل تكلّمتُ دون أن أنتبه؟ لست أدري.

لكنّ النّائمَ فتح عينيه فجأة. فذُعرتُ وتراجعت. نظر حوله مستغربا كما فعلتُ من قبل، وبدا كالخارج أيضا، بصعوبة من



عمق وعدم عظيميْن. ثمّ جال مُجهدا بنظره في أرجاء الغرفة الغريبة والمجهولة، وثبّته عليّ في ذهول.

لكنّي تمالكت نفسي قبل أن يتمكّن من الكلام أو استعادة رشده، لقد كان عليّ ألاّ أترك له فرصة النطق بكلمة، ولا السّماح له بسؤال، ولا إزالة الكُلفة، فلا يجب لشيء ممّا حدث في الليلة السابقة، أن يُعاد أو يُفسّر أو يُناقش.

«عليَّ الانصراف» ـ أخبرته بسرعة ـ «ابقَ هنا وارتَدِ ملابسك، سوف أراك عند الظهيرة في مدخل الكازينو، وسأهتمّ، حينها، بكلّ ما يلزم».

وقبل أن ينبس بكلمة واحدة، هربتُ حتّى لا أرى هذه الغرفة مجدّدا، ودون أن ألتفت، ركضتُ خارج ذلك النّزل الّذي لا أعرف اسمه، ولا اسم المجهول الذي قضّيت معه اللّيل.


مكتبة
الفكر الجديد

(5)

قطعت السيدة «س» روايتها، لتلتقط أنفاسها. وقد زالت آثار الضغط والألم من صوتها، مثل عربة تنزل المنحدر خفيفة وسريعة بعد صعود عسير إلى قمّة المُرتفَع، وصار الآن، لرواية السيدة «س» أجنحة:

ـ عندئذ هرعتُ إلى النّزل الذي أقيم فيه عبر الشّوارع المغمورة بنور الصباح بعد أن طردَت العاصفة من فوقها كلّ أثقال السّماء، كما انقشعت عنّي كلّ المشاعر المؤلمة.

ولا يجب أن تنسى ما رويته لك سابقا: فقد زهدتُ كليّا في الحياة منذ وفاة زوجي، ولم يكن أبنائي في حاجة إليّ، ولم أكن أهتمّ بنفسي. وإنّ الحياة التي لا تُكرّس لهدف محدّد هي غلطة. لكنّ مهمّةً أُنيطت بعهدتي للمرّة الأولى وبمحض الصدفة: لقد أنقذت رجلا وانتشلته من الهلاك، مسخّرة لذلك كلّ جهدي، ولم يتبقَّ سوى التغلّب على عقبة صغيرة، حتّى أصل بهذه المهمة إلى نهاية محمودة.

عندما وصلتُ إلى النّزل لم تُثِر فيّ نظرة البوّاب، الذي تطلّع إليّ باستغراب وهو يراني أعود إلى غرفتي عند الساعة التاسعة صباحا، أيّ خجل أو كآبة ممّا كان ينتابني، فلم يعد شيء من ذلك يحيا داخلي، لكنّ تجدّد رغبتي في الحياة فجأة، وشعورا جديدا بضرورة وجودي،



جعلا الدّماء تتدفّق حارّة وغزيرة في شراييني.

ولمّا وصلتُ إلى غرفتي غيّرت ملابسي بسرعة، وخلعتُ ثوب الحِداد (دون أن أنتبه لذلك إلاّ لاحقًا)، كي أضع آخر بألوان زاهية، ثمّ ذهبتُ إلى المصرف لأسحب الأموال، وعجّلتُ إلى محطّة القطار للتأكّد من مواعيد الانطلاق، بتصميم غريبٍ أذهلني أنا نفسي، فقد رتّبتُ، علاوةً على ذلك، شؤونًا ومواعيدَ أخرى، ولم يبقَ لي سوى تأمين عودة هذا الرجل الذي تركته الأقدار في عهدتي، إلى دياره وإنقاذه نهائيّا.

في الواقع كانت تلزمني طاقة لمواجهته آنذاك. فكلّ ما حدث بالأمس كان في العتمة، وسط دوّامة، مثلما يتصادم حجران حين يجرفهما السّيلُ بغتة. وبالكاد كان أحدنا يعرف الآخر، ولم أكن متأكدة من استطاعته التعرّف عليّ.

لقد كان الأمسُ صدفةً، نشوةً، جنونًا شيطانيّا لكائنيْن ضائعيْن، أمّا اليوم فعليَّ أن أُسلم له نفسي بانفتاحٍ أكثر من البارحة، لأنّني مُرغمةٌ، الآن في هذا الوضوح القاسي لضوء النهار، على الاقتراب منه بشخصي ووجهي، كإنسانٍ ممتلئٍ بالحياة.

لكنّ ذلك حدث بطريقة أسهل ممّا توقّعتُ، فما كدتُ أقتربُ من الكازينو، في السّاعة المحدّدة، حتّى نهض شابّ عن مقعده وركض لاستقبالي.

كان في تفاجئه شيء عفويّ وطفوليّ وبريء وسعيد، كالذي في كلّ حركة من حركاته فائقة التعبير. وقد طار نحوي بنظرته التي تُشعّ منها بهجة الامتنان والاحترام، في الآن ذاته. وما إن أحسّت عيناه



باضطراب عينيَّ في حضوره، حتّى انخفضتا بتواضع.

الامتنان! نادرا ما نرى النّاس يُظهرونه، وحتّى أكثر الممتنّين لا يجدون العبارة المناسبة، بل يكتفون بالصّمت مرتبكين، ويُبدون الخجل والحرج لإخفاء مشاعرهم. لكنّ هذا الكائن الذي حَبَاهُ الله ـ مثل ما يفعل نحّات عجيب ـ بكلّ الحركات القادرة على تبليغ المشاعر بإحساس وجمال وليونة، كان تعبيره عن الامتنان يُشعّ كشعف من كلّ جسده.

انحنى على يدي، وكان الخطّ الرّقيق لرأسه الطفوليّ يميل بتفانٍ، وقد بقي على تلك الهيئة لدقيقة، يقبّل أصابعي باحترام ودون أن يفعل شيئا سوى مُلامستها. ثمّ تراجع ليسألني عن صحّتي، ويَرمُقني بحنانٍ. كان شديد اللّباقة في كلّ كلمة يقولها، حتى أنّ القلق كلّه زال عنّي في غضون دقائق.

وكانعكاسٍ لراحتي النفسيّة، أضاء المشهد من حولنا، في سكينة تامّة: فالبحر الذي كان يستشيط، البارحة، غضبا صار هادئا، وصامتا وصافيا إلى درجة أنّنا نرى من بعيد لمعان البياض النّاصع لأصغر حصاة تحت المويجات التي تهدّب الشاطئ، وكان الكازينو، تلك الهاوية الجهنمية، بوضوحه الموريسكي مثل قطعة من القماش المزركش، منتصبا في السماء المكنوسة لتوّها، والكشك الذي أجبرتنا الأمطار الغزيرة على الاختباء تحت سقيفته تحوّل إلى محلّ لبيع الأزهار: كان ثمة أكاليل كبيرة من الورود والنباتات الخضراء، وسط خليط وافر ومتنوّع من الأبيض والأحمر ومتعدد الألوان، تبيعها فتاة ترتدي سترة زاهية.



دعوته إلى الغداء في مطعم صغير، وهناك روى الشّاب المجهول مغامرته المأساويّة التي أكّدت حدسي الأول، حين شاهدتُ يديه المرتعشتين والمرتبكتين بعصبية فوق البساط الأخضر لطاولة القمار. لقد كان ينحدر من عائلة عريقة النبل في بولونيا النمساوية، وكان يهيّئ نفسه للعمل الدبلوماسي، فقد درس في فيينا واجتاز امتحانه الأول، منذ شهر، بنجاح لا نظير له.

وكمكافأة على ذلك النّجاح أخذه عمّه الضابط السامي في هيئة الأركان العامّة، والذي كان يقيم عنده، إلى «براتر» للاحتفال، وصحبه إلى مركض الخيول. وقد كان العمّ محظوظا في المقامرة، إذ كسب ثلاث مرات متعاقبة. ثمّ ذهبا للعشاء في مطعم فخم مثقلين بالمبلغ الكبير الذي كسباه.

وفي اليوم التّالي تلقّى دبلوماسي المستقبل، من والده، مبلغا يُعادل مصروفه الشهريّ، جزاءَ نجاحه في الامتحان. وكان سيبدو هذا المبلغ ضخما قبل يومين، أمّا الآن، وبعد ذلك الرّبح السّهل، بدا له المبلغ تافها وزهيدا. وحالما أتمّ غداءه عاد إلى مركض الخيول، وراهن بشغف وشراسة، وقد شاء حظّه الجيّد ـ أو السيّء ـ أن يغادر مضمار «براتر» بثلاثة أضعاف نقوده بعد آخر سباق.

ومنذ ذلك الحين، تملّكه هوس المقامرة في السّباقات تارةً، وفي المقاهي أو النوادي تارة أخرى، مُستنزفا وقته ودراسته وأعصابه وخاصّة موارده. ولم يعد باستطاعته التفكير ولا النّوم بسلام ولا السّيطرة على نفسه.

وفي إحدى اللّيالي، وبيْنما هو يخلع ثيابه، بعد عودته من النّادي



الذي خسر فيه كلّ ماله، وجد في صِدَارِه ورقة نقديّة مغضّنة ومنسيّة، وكان الأمر فوق طاقته، فارتدى ثيابه ثانية وتسكّع يَمنةً ويَسْرةً إلى أن عثر على بعض لاعبي «الدومينو» في إحدى المقاهي وبقيَ معهم حتّى مطلع الفجر.

وهبّت أخته المتزوّجة، ذات يوم، إلى نجدته فسدّدت ديونه التي راكمها عند المرابين الذين لا يتأخّرون عن فتح سجلّ ديْن لسليل عائلة مرموقة.

وإذ حالفه الحظّ فترةً، فإنّ النّحس لازمه فيما بعد، وكلّما تفاقمت خسارته تضخّمت المبالغ التي عليه أن يكسبها لإنقاذ نفسه والوفاء بالتزاماته ووعوده.

وبعد أن رهن ساعته وملابسه منذ مدّة طويلة، حدث، في الأخير، أمر رهيب: فقد سرق، من خزانة عمّته العجوز، حِليتيْن ثمينتيْن نادرا ما كانت تضعهما، ورهن إحداهما مقابل مبلغ كبير تمكّن من مضاعفته أربع مرّات في اللّيلة ذاتها، وبدل أن ينسحب، قامر بكامل المبلغ وخسره.

وبما أنّ السّرقة لم تُكتشف إلى حدّ اللّحظة التي سافر فيها، فقد رهن الحِلية الثانية، وأخذ القطار إلى «مونتي كارلو» مُستجيبا لإلهام مفاجئ، كي يكسب الثّروة التي يحلم بها من لعبة «الروليت».

ثمّ باع حقيبته وثيابه ومطريّته، ولم يبقَ لديه سوى مسدّسه ذي الأربع طلقات، وصليب صغير مرصّع بالأحجار الكريمة، أهدته إليه عرّابته أميرة «إكس...» وكان يرفض التخلّي عنه.



لكنّه باعه، بعد الظهر، مقابل خمسين فرنك، ليتمكّن في المساء ذاته، من تذوّق بهجة اللّعب الجيّاشة للمرّة الأخيرة، حتّى الحياة أو حتّى الموت.

لقد روى لي ذلك، بلطف حضوره الحيويّ والأصيل، وكنتُ أصغي متأثّرة ومتزعزعة ومفتونة، دون أن أشعر بالسخط، ولو للحظة، أو تخامرني فكرة أنّ هذا الرجل الموجود، هنا، إلى طاولتي كان سارقا في نهاية الأمر.

ولو أنّ أحدا، في اليوم السّابق، لّمح لي - أنا المرأة ذات الماضي النقيّ التي تفرض احتراما شديدا على من حولها - أنّني سأكون جالسة ذات يوم، دون كلفة، إلى جانب شابّ مجهول تماما، بالكاد يكبر ابني سنّا، وسارق لِحليتيْن من اللّؤلؤ، لاعتبرته معتوها.

لكنّي لم أشعر، ولو للحظة، بالرّعب أثناء روايته، فقد كان يسرد كلّ ذلك بشكل طبيعيّ وبشغف يجعل ما اقترفه يبدو ناتجا عن حالة حمّى أو مرض، لا عن جريمة شنيعة. وبالنّسبة إلى امرأة مثلي عاشت الليلة الفارطة، أحداثا غير متوقّعة، أحداثا مندفعة كشلاّل، فإنّ كلمة «مستحيل» قد فقدت معناها فجأة.

كانت التّجربة التي حصلتُ عليها في تلك السّاعات العشر من الواقع أكبر بكثير من تلك الّتي راكمتها طيلة أربعين سنة من الحياة المحترمة. لكنّ شيئا آخر أفزعني في هذا الاعتراف: هو بريق عينيه المحموم الذي كان يحرّك كلّ عضلات وجهه كهربائيّا كلّما تكلّم عن ولعه بالقمار. فمجرد الحديث عنه يثيره، وكانت ملامحه المعبّرة تترجم، بصفاء رهيب، أدقّ حركات توتّره الناتج عن الفرحة



أو الألم. ويداه الفاتنتان، العصبيتان، المرنتان، كما كانتا فوق طاولة القمار، تصيران، رغما عنه، طائريْن جارحيْن، وكائنيْن شرسيْن وماكريْن: رأيتهما ترتجفان فجأة، عند مفاصلهما، أثناء حديثه، وتنحنيان بشدّة وتتقلّصان في شكل قبضة، ثمّ ترتخيان لتتشابكا من جديد. وفي اللّحظة التي كان يعترف فيها بسرقة الحِليتيْن، كانت يداه المتوثّبتان والسريعتان كالبرق، تقلّدان حركة السّارق، (مما جعلني أرتجف رغما عني)، وقد رأيتُ الأصابع تقبض على الحِلية بجنون وتدسّها في راحة اليد بخفّة.

وأدركت بذعر لا يوصف أنّ هذا الرّجل كان متسمّما بولعه إلى آخر قطرة من دمه. وأكثر ما أثّر فيّ وأرعبني في حكايته هو تلك العبودية التي يعيشها شابّ هادئ وهانئ بطبعه لشغف جنوني. لذلك اعتبرت من واجبي المطلق أن أقنع «محضوني» وديّا، بمغادرة «مونتي كارلو» في الحال، حيث الإغراء خطير جدا. كان عليه أن يسافر في اليوم ذاته للالتحاق بعائلته، قبل أن يُكتشف أمر اختفاء الحِليتيْن ويتدمّر مستقبله إلى الأبد.

وقد وعدته بالمال اللاّزم من أجل السفر واسترجاع الحليتيْن، بشرط أن يستقلّ القطار في اليوم نفسه، وأن يُقسم بشرفه ألاّ يلمس ورقة قمار أبدا، وألاّ يُشارك في أيّ لعبة حظ.

لن أنسى ما حييت، طريقته العاطفيّة في الامتنان. فقد بدأ متواضعا ثمّ أخذ يشرق شيئا فشيئا. ولن أنسى كيف أصغى إليّ هذا الرجل الضائع. ولن أنسى ما حييت، الطريقة التي كان يشرب بها كلماتي حين وعدتُ بمساعدته. ثمّ مدّ يديْه فوق الطاولة، فجأة،



ليُمسك يديّ كتعبير عن الودّ والوعد المقدّس، بحركة ستبقى منقوشة في ذاكرتي، وقد طفرت الدموع من عينيْه الصافيتيْن اللّتيْن ما تزال نظرتهما زائغة قليلا، وكان كلّ جسده يرتجف من السّعادة.

لقد حاولت مرارا وصف التّعابير الاستثنائيّة لجسده وكافّة حركاته، لكنّني أعجز عن وصف هذا التعبير الأخير الذي كان بمثابة انتشاء غبطة خارق، لم ترَ عينٌ مثيلا له على وجه إنسان، ولا يُمكن مُقارنته إلاّ بذلك الطيف الأبيض الذي نظنّ أننا نلمحه عند خروجنا من حلم ويُخيّل إلينا ملاكا بصدد الاختفاء.

ولِمَ الإنكارُ؟ لم أكن قادرة على مقاومة تلك النّظرة. فالامتنان يمنح السّعادة لأنّ المرء نادرا ما يختبره بشكل ملموس، والرّقة تمنح الرّاحة، وكامرأة باردة ومتّزنة، فإنّ إشادة كتلك كانت جديدة عليَّ، وطيّبة ولذيذة. وكان منظر الطبيعة يشهبه هذا الرجل المتزعزع والمحطّم، فقد أشرق بطريقة سحريّة بعد أمطار الأمس.

عندما غادرنا المطعم، كان البحر ساكنًا، بديع اللّمعان، بزرقة تشارف السماء، ولا بياض فيه غير ما تُدخله عليه النّوراس المحلّقة في أعالي زرقة أخرى. أنت تعرف المنظر الطبيعيّ للـ«ريفييرا» أليس كذلك؟ إنّه يُوَلّد، دائما، انطباعا بالجمال، لكنّه باهت كبطاقة بريدية مصورة، ويمنح ألوانه الكثيرة للعين في استرخاء، كما تفعل حسناء، شبه شرقية في هدوئها الأبدي، تاركة كل الأنظار تمر عليها وهي نائمة كسلى دون اكتراث. لكنّ هذا الجمال يَسمُو في أيّام نادرة، فيُهيْمن ويجعل ألوانه الفاقعة تصرخ لامعة بحماس، وينتصر في بثّ ثراء أزهاره المتعدّدة الألوان، داخل رأسك. ثمّ ينفجر ويحترق بالفتنة.



وهذا أحد أيّام البهجة الذي خَلَف الفوضى العارمة لليلةٍ عاصفةٍ، وقد كان الطريق المغسول لتوّه، يلمع. والسماء فيروزية، وكانت باقاتٌ من مشاعل الألوان تضيء في كلّ مكان داخل الخضرة المشبعة بالنّسغ.

وبدت الجبال، فجأة، أكثر وضوحا وقربا في الجوّ الهادئ والغارق في نور الشمس، وقد جمّعها الفضول في أقرب موضع من المدينة الصغيرة المتلألئة في بهجة. ومع كلّ نظرة كنا نحسّ دعوة الطبيعة المغرية والمحفّزة الّتي تأسر قلبك رغما عنك.

«فلنركب عربة» ـ قلت ـ «ولنقم بجولة على الكورنيش»، فوافق بفرح، وبدا هذا الشاب كأنّه يكتشف المشهد الطبيعيّ ويراه لأوّل مرة، منذ وصوله، فلم يعرف إلى حدّ الآن، غير القاعة الخانقة للكازينو، بروائحها الثقيلة المختلطة بالعرق، وصخب أولئك الأشخاص البشعين المكشّرين، وبحر كئيب رماديّ وهادر. أمّا الآن فقد بُسطت أمامنا مروحة الشريط السّاحليّ الغارقة في الشمس، لتجول العين بسعادة من أفق إلى آخر.

كنّا نسير بالعربة (إذ لم تكن السيّارة قد وجدت بعدُ)، وجُبنا ذلك الشارع البديع ببطء، ومررنا بـ«فيلاّت» عديدة وبشر كُثر. وفي الخضرة، أمام كلّ منزل وكلّ فيلاّ ظليلة، انتصبت واقيات الشمس الصنوبرية مائة مرة، فأحسسنا بتلك الرغبة السحريّة: كم سيكون العيش هنا حلوا، وهادئا، وسعيدا، ومنعزلا عن العالم!

هل عرفتُ في حياتي كلّها سعادة أكبر مما كنت عليه خلال تلك الساعة؟ لا أدري.



إلى جانبي الآن في العربة، من كان بالأمس بين مخالب النّكبة والموت، وها هو ذا يسبح في أشعّة الشّمس البيضاء، وقد تجدّد شبابه وبدا أصغر سنّا، وكأنّه عاد طفلا جميلا ولاهيا، بعينين ملتهبتين ومليئتين بالاحترام في الآن ذاته، ولم يأسرني فيه شيء كما أسرتني لباقته الرقيقة المتيقّظة: فإذا صار المرتفع وعرًا وشقّ على الحصان جرّ العربة، كان يقفز برشاقة ليدفعها من الخلف. وإذا ذكرتُ اسم وردة، أو أشرت إلى واحدة خلال الطّريق، كان يجري ليقطفها. وقد التقط ضفدعا صغيرا كان يزحف فوق الطريق بصعوبة بعد أن جلبته أمطار البارحة، وحمله بعناية إلى العشب الأخضر كي لا تدهسه العربة. وكان في غضون ذلك، يفرط في رواية أطرف الأشياء وألطفها. وأعتقد أنّ الطريقة الّتي كان يضحك بها كانت بالنسبة إليه ضربا من التلهية، لأنه لو لم يفعل ذلك لوجد نفسه مجبرًا على الغناء والقفز أو تقليد المجنون، لشدّة ما في ضحكه من فرحة وما في الحماس المباغت لسلوكه من انتشاء.

وحين اجتزنا ببطء قرية صغيرة خلال المرتفع، رفع قبّعته بأدب فجأة، وأثار ذلك استغرابي: لمن كان يوجّه التحية هنا، وهو غريب بين الغرباء؟ فاحمرّ وجهه قليلا من سؤالي وأجابني، كالمعتذر، أنّنا مررنا بكنيسة وأنّ الناس في دياره، (في بولونيا كما في كلّ البلدان الكاثوليكيّة الملتزمة) تعودوا منذ طفولتهم، على تعرية رؤوسهم أمام جميع الكنائس والمعابد.

لقد أثّر فيّ هذا الاحترام الجميل للمقدّسات عميقا، وتذكّرت في الوقت نفسه ذلك الصّليب الذي حدّثني عنه، فسألته إن كان مؤمنا،



وعندما أعلمني، بخجل وتواضع، أنّه يأمل في قسطه من الرّحمة. راودتني فكرة فجأة:

«توقف» صحتُ في الحوذيّ، ونزلتُ مسرعة، فلحقني متعجّبا وهو يسأل:

- «إلى أين نحن ذاهبان؟».

واكتفيت بردّ واحد: «تعال معي».

رجعتُ معه إلى الكنيسة، وقد كانت عبارة عن معبد ريفيّ صغير مبنيّ من الآجر، وبدت الجدران الدّاخلية المطليّة بالجير رماديّةً وعاريةً في العتمة، وكان الباب مفتوحا بشكل جعل قبسا من النّور الأصفر يتوزّع بوضوح داخل الظلام، حيث رسم الظلّ حوافّ مذبح صغير باللّون الأزرق. وكانت هناك شمعتان ترمقاننا بعين محجوبة، وسط الضوء الخافت الممزوج برائحة البخور العبقة.

دخلنا، فنزع قبّعته، وغطّس يده في جرن الماء المقدس، ورسم علامة الصّليب ثمّ ركع. وحالما انتصب من جديد أمسكتُه من ذراعه.

«تعال» ـ قلت بحماس ـ «لنذهب إلى مذبح أو إحدى أيقوناتك المقدسة، وستحلف اليمين الذي سأمليه عليك».

نظر إليّ متعجّبا، وشبه مذعور. لكنّه فهم بسرعة واقترب من مشكاة بها تمثال، ثمّ رسم علامة الصّليب وركع بخشوع.

- «أعد ورائي» ـ قلتُ وأنا أرتجف من التأثّر ـ «أعد ورائي: أُقسم»، قال «أُقسم»، وواصلت: «ألاّ أشارك في لعبة قمار، مهما كان نوعها، وألاّ أعرّض حياتي وشرفي لهذه الفتنة أبدا».



كرّر تلك الكلمات مرتعدا، فارتدّ صداها قويّا وواضحا في الفراغ المطلق للمكان. ثمّ مرّت لحظة صمت، وكان هذا الصمت عظيما إلى درجة جعلت بالإمكان سماع الحفيف الخفيف للأشجار والأوراق، في الخارج بفعل الرّيح.

وفجأة سجد مثل تائب، ونطق بنشوة جديدة عليّ وبسرعة واسترسال كلمات باللّغة البولونية لم أفهمها. لعلّها كانت صلاة انتشائية، وحركة استغفار وتوْبة، فقد كان ذلك الاعتراف الصّاخب يجعله يحني رأسه باستمرار، في تواضع من فوق مسند المركع. وكانت الأصوات الغريبة تتردّد بحدة أشدَّ في كلّ مرّة، حتى أنّ الكلمة نفسها كانت تخرج من فمه بورَعٍ عصيّ عن الوصف.

ولم أسمع قبل ذلك ولا بعدهُ، صلاةً بتلك الطريقة في أيّ كنيسة من كنائس العالم. كانت يداه تحضُنان المَرْكَع الخشبيَّ بعصبيّة، وكان كلّ جسده يهتزّ بفعل إعصار داخليّ يحمله، حينا، على النّهوض بشكل مفاجئ، ويلقي به، حينا آخر، في سجود عميق. لم يكن يرى أو يشعر بشيء: كلّ ما فيه كان ينتقل إلى عالم آخر، إلى مَطْهَرٍ للتّحول أو يندفع نحو الفُلك المقدّس.

وأخيرا نهض ببطء، ورسم الصليب مرة أخرى ثمّ استدار بمشقة، وكانت ركبتاه ترتعدان، ووجهه شاحبا كوجه رجل مجهد. لكنّ عينيْه أشعّتا حين رآني، وأضاء وجهه المتحوّل بابتسامة نقية وورعة حقّا.

فاقترب منّي وانحنى كثيرا ـ على الطريقة الروسيّة ـ وأمسك يديَّ الاثنتين ليقبّلهما بطرَفيْ شفتيه في احترام شديد:



- «لقد أرسلكِ الله إليَّ وها قد عبّرتُ له عن شكري».

لم أعرف ما الذي كان عليّ قوله، لكنّي تمنيتُ أن ينطلق «الأرغن» في العزف فجأة، من فوق مصطبته الصغيرة، إذ أحسست أنّني نجحتُ في كلّ شيء: لقد أنقذتُ هذا الرجل الى الأبد.

خرجنا من الكنيسة لنعود إلى النّور الفاتن المتدفّق لهذا اليوم اللاّئق بشهر أيّار: لم أرَ العالم جميلا إلى ذلك الحدِّ أبدا. وواصلنا، لساعتيْن أخريَيْن، تجوالنا في العربة، ببطء، إلى قمّة الجبل، حيث الطريق البانوراميّ الذي يُهديك مشهدا جديدا مع كلّ مُنعطف. لكنّنا لم ننطق بعدها بشيء، فأيّ حديث يعقب ذلك الدّفق من المشاعر كان سيبدو ضعيفا. ولمّا التقت نظراتنا صدفة، اضطررتُ إلى تحويلها بارتباك: فبالنسبة إليّ، كان شعورًا عظيمًا جدًّا أن أرى معجزتي الخاصّة.

وفي حدود السّاعة الخامسة بعد الظهر، عُدنا إلى «مونتي كارلو»، وقد كان لديّ موعد مع بعض أفراد الأسرة، ولم يكن بإمكاني تأجيله. كما أنّني، في الحقيقة، كنت أرغب بشدة في أخذ استراحة، والاسترخاء بعد تلك الثورة العنيفة لمشاعري. فقد بلغت السّعادة ذروتها، وكنت أشعر أنّني في حاجة إلى تصريف هذه الحالة من النّشوة والحماس المفرط، اللّذيْن لم أعرف لهما مثيلا طيلة حياتي. لذلك رجوْتُ «محضوني»، أن يصحبني إلى النزل، للحظة فقط.

وهناك، في غرفتي، سلّمته الأموال اللاّزمة للسّفر واستعادة الحليتيْن من الرّهن. واتفقنا أن يذهب، أثناء موعدي، لاقتناء تذكرة السّكك الحديديّة، ثمّ نلتقي عند السابعة مساء في بهو المحطة قبل

نصف ساعة من انطلاق القطار الذي سيوصله إلى دياره بجنوة.

وحين هممتُ بإعطائه الورقات النقديّة الخمس، أصاب شفتيه شحوب غريب:

-«لا... إلاّ المال... أرجوكِ... إلاّ المال!»، صرخ وهو يَصرّ على أسنانه بينما كانت أصابعه تنسحب عصبية وهائجة.

ـ «إلاّ المال... إلاّ المال... إنّي لا أحتمل رؤيته»، كرّر مرة أخرى، كمن أُنهك جسده بالخوف والتقزّز. لكنّي هدّأت من ارتباكه بالقول إنّ المبلغ سلفة، وما عليه سوى تسليمي إيصالاً به، إذا كان يشعر بالإحراج.

- «نعم... نعم... إيصالٌ» غمغم محوّلا بصره، وغضّن الورقات النّقديّة، كما لو كانت مادّة لزجة تلوّث الأصابع، ودسّها في جيبه دون أن ينظر إليها، ثمّ كتب، بخط سريع، بعض الكلمات على ورقة.

وعندما رفع عينيْه، كان العرق ينضح من جبينه: كأنّ شيئا يُصارع بضراوة للخروج من داخله، وما كاد يسلّمني الورقة مضطربا، حتى انتابه ارتجاف في كلّ جسده، وفجأة (تراجعتُ مذعورة، رغما عنّي)، خرّ على ركبتيْه وقبّل حاشية فستاني. لقد كانت حركة يعجز عنها الوصف، جعلت أوصالي ترتعد من فرط حدّتها التي لا مثيل لها. وانتابتني قشعريرة غريبة، وكنت متأثرة تماما فلم أقدر إلاّ على الغمغمة:

- «أشكرك على امتنانك هذا، لكنّي أرجوك أن ترحل الآن،



وسيتسنّى لنا، اللّيلة عند الساعة السابعة في بهو محطة القطار، أن نُودّع بعضنا».

رمقني بنظرة يخضّلها بريق حنون، فظننتُ أنّه يريد أن يقول لي شيئا، وبدا، لوهلة، يحاول الاقتراب منّي، لكنّه فجأة، انحنى مرّة أخرى، انحناء شديدا جدّا، ثم غادر الغرفة.


مكتبة
الفكر الجديد

(6)

قطعت السيّدة «س» روايتها من جديد.

وانتصبت، لتتوجّه نحو النافذة، ثمّ نظرت إلى الخارج وبقيت واقفة، دون حراك، لمدّة طويلة، وكنت أرى ما يشبه الارتجاف في الظلّ الذي يُخلّفه ظهرها. وفجأة، التفتت بحزم بينما قامت يداها، اللّتان بقيتا هادئتيْن ومحايدتيْن إلى حدّ ذلك الوقت، بحركة عنيفة وقاطعة، كما لو كانتا تريدان تمزيق شيء ما. ثمّ نظرت إليّ بقسوة، وشيء من الجرأة، واستأنفت على الفوْر:

«لقد وعدتُك بأن أكون صادقة تماما، وكم أجد، في هذه اللّحظة، أنّ هذا الوعد كان ضروريّا، لأنّني فهمت الآن فحسب، بينما أجتهد لأصف، للمرة الأولى وبطريقة متناسقة، كلّ ما حدث في تلك الساعة، وأبحث عن كلمات دقيقة لأعبّر عن شعورٍ كان في ذلك الوقتِ منطويا وملتبسا. فهمت الآن، وبوضوح، عدّة أشياء لم أكن أعرفها في ذلك الوقت، أو ربّما لم أكن أريد معرفتها، لذلك أرغب في قول الحقيقة، لنفسي ولك، بحماس وعزم: ففي تلك الساعة، حين غادر الشابّ الغرفة وبقيت وحدي، أحسست، (كان ذلك بمثابة فقدان الوعي الذي تملّكني بشدّة)، أحسست بضربة تصيب قلبي، شيء ما سبّب لي ألما قاتلا، لكنّي لم أكن أعرف (أو كنت أرفض أن



أعرف) ما الذي آلمني إلى ذلك الحدّ، في التصرّف الحنون والمحترم، الذي قام به «محضوني» توّا.

أمّا اليوم، وبما أنّني أجهد لأجعل الماضي ينبجس مثل شيء مجهول من أعماقي، بتسلسل وحماس، وبما أنّ حضورك لا يسمح بأيّ كتمان، أو أيّ هروب جبان من الشعور بالخجل، فإنّي أعرف ذلك بوضوح : إنّ ما آلمني كثيرا، هي الخيبة... الخيبة... لأنّ هذا الرّجل رحل طائعا، دون أيّ محاولة للتشبّث بي، أو للبقاء إلى جانبي... لأنه استجاب بلطف واحترام لأوّل دعوة مني إلى الانصراف، بَدَلَ... بَدَلَ أن يحاول جذبي إليه بعنف... ولأنّه يُجلّني فحسب، كقدّيسة ظهرت في طريقه... ولأنّه... لأنّه لم يشعر بأنّني امرأة.

كانت خيبة بالنسبة إليّ، خيبة لم أعترف بها، لا في ذلك الحين ولا بعده، لكنّ إحساس المرأة يعلم كلّ شيء دون كلام، ودون وعي دقيق.

لأنّني... الآن، لن أخدع نفسي مجدّدا...، لو تشبّث بي ذلك الرجل حينها، لو طلب منّي اللّحاق به، لذهبتُ معه إلى أقاصي العالم، ولطّختُ شرفي وشرف أولادي. ولهربتُ معه، غير عابئة بأقاويل الناس ولا بضميري، مثلما فعلت تلك السيدة «هنرييت» مع الشاب الفرنسي الذي لم تكن تعرفه قبل يوم من هروبهما. وما كنتُ لأسأل إلى أين أو إلى متى، ولا لألقي نظرة واحدة خلفي، على حياتي الماضية. ولَضحّيتُ من أجل هذا الرجل بمالي، وباسمي، وبثروتي، وبشرفي... ولتسوّلتُ من أجله، ولعلّي ما تورّعتُ عن قبول أيّ دناءة في العالم يجرّني إليها. ولَكنتُ لفظتُ جميع ما يُسمّى في المجتمع عفّة



واحتشاما، لو تقدّم نحوي فحسب، وقال كلمة واحدة، لو تقدّم خطوة واحدة، لو حاول أن يحضنني، لكنتُ في تلك اللّحظة ضائعة ومرتبطة به إلى الأبد.

لكن... سبق وقلتُ لك ذلك... لم يُلقِ هذا الكائن الفريد نظرة عليَّ، على المرأة التي كُنتها... ولَكم كنتُ أتحرّق للاستسلام، الاستسلام كليّا... لم أشعر بذلك إلاّ حين صرتُ وحدي، مع ذاتي، عندما وقع الشغف ـ الذي كان في اللّحظة السابقة مُهتاجا على وجهه المضيء وشبه الملائكيّ ـ وقعًا ضبابيًّا في نفسي، وأخذ يتحسس فراغ صدر مهمل.

نهضتُ متثاقلة، وقد تضاعف نفوري من موعدي. وبدا جبيني مثقلا بخوذة حديديّة ضيّقة، جعلني وزنها أترنّح، وكانت أفكاري مشتتة ومتردّدة مثل خطواتي تماما، عندما كنت أسير نحو النزل الآخر، حيث سألتقي بأقربائي.

وهناك، جلستُ كئيبة وسط حديث متوهّج، وكنتُ أشعر بالذّعر كلّما وقعت عيناي، صدفة، على تلك الوجوه غير المُعبّرة، (مقارنة بذلك الوجه الحيويّ الآخر، مثل تعاقب الظلال والأنوار في لعبة الغيوم) تلك الوجوه التي بدت لي جامدة أو مقنّعة. وخُيّل إليّ أنّني وسط أموات، لفرط ما كان جمعهم خاليا من الحياة بصورة فضيعة، وبيْنما كنتُ أضع السكّر في فنجاني، وأتحدّث ببعض الكلمات، شاردة الذّهن تماما، كان ذلك الوجه ما يزال ينبثق في داخلي، كأنّه مدفوع بالدّفق الحارّ لدمائي، ذلك الوجه الذي صار تأمّله فرحا حماسيّا بالنسبة إليّ، والذي (فكرة مرعبة!) سأراه للمرّة الأخيرة، بعد ساعة أو ساعتين.



والأكيد أنّني أطلقت، رغما عنّي، تنهيدة خفيفة أو زفرة، لأنّ ابنة عمّ زوجي انحنت، فجأة، لتسألني عمّا بي وإن كنت على ما يرام، إذ بدوت لها شديدة الشحوب والاضطراب. فاغتنمتُ فرصة ذلك السّؤل غير المتوقّع لأعلن أنّني أُعاني فعلا، من صداع في رأسي، ثمّ استأذنتُ بهدوء، للانصراف.

وهكذا استعدتُ ذاتي. فعجّلتُ بالعودة إلى النزل الذي أقيم فيه، وحالما وصلتُ وألفيتُ نفسي وحيدة، عاودني الشعور بالفراغ والإهمال، وكانت الرّغبة في أن أكون مع هذا الشّاب الذي عليّ، اليوم، أن أفارقه إلى الأبد، قد تملّكتني برعب. كنت أذرع غرفتي جيئة وذهابا، وأفتح بعض الأدراج بلا سبب، وأغيّر ملابسي وأشرطتي، لأجد نفسي، بغتة، أمام المرآة، متسائلة بعين المتفحّص، إن كنتُ أستطيع شدّ نظره بهذا التأنّق.

وفجأة، فهمتُ نفسي: لقد كنتُ أبذل كلّ ما بوسعي كي لا أفارقه، وفي لحظة احتدامٍ، صارت هذه الرّغبة قرارا. فهرعتُ أبحثُ عن بوّاب النزل، لأخبره أنّني سأرحل في اليوم ذاته، على متن قطار المساء. والآن يجب التحرّك بسرعة: قرعتُ الجرس طلبًا للخادمة كي تساعدني على حزم أمتعتي، لأنّ الوقت كان يداهمني.

وبينما كنّا نتنافسُ، بسرعة مشتركة، في رصّ الثياب والأغراض الخفيفة الضروريّة داخل الحقائب، كنتُ أتصوّر مسبقا ما ستكون عليه هذه المفاجأة: كيف سأصحبه إلى غاية القطار، كيف سيمدّ لي يده في آخر، آخر لحظة، للوداع الأخير، وكيف سأتبع، بغتة، هذا الشابّ المندهش إلى العربة، لأكون معه هذه اللّيلة، واللّيلة التي تليها



وما استمرّت رغبته فيّ.

كان شيء من نشوة السّعادة والحماس يضطرم في دمي، وكنتُ أضحك، أحيانا، ضحكا مباغتا قويّا، وأنا أُلقي الفساتين في الحقائب، أمام دهشة الخادمة. وكنتُ أشعر أنّ ذهني في غير مزاجه الطبيعيّ، وحين جاء عامل التوصيل ليأخذ الحقائب، نظرتُ إليه في البداية بذهول. لَكَم كان التفكير في الأشياء الإيجابية صعبا عليَّ، في الوقت الذي كان فيه الحماس يُفيض روحي كلّها.

كان الوقت يضغط، كان الوقت يقترب من السّاعة السّابعة، ولم تتبقَّ إلاّ عشرون دقيقة على انطلاق القطار. وكنتُ أعزّي نفسي بفكرة أنّني لستُ ذاهبة لفراق أو وداع، مادمتُ قد قررتُ مرافقته في سفره، إن أذن لي بذلك.

حمل عامل التوصيل حقائبي، وأسرعتُ إلى مكتب النزل لدفع حسابي. وما إن أعاد المدير لي الباقي، حتى كنتُ مستعدّة للمغادرة، حينها لَمستْ يَدٌ كتفي برقّة. فانتفضتُ، إنّها قريبتي وقد قلقت لوعكتي الصحيّة المزعومة فأتت لتطمئنّ عليّ. اسودّت الدّنيا في عينيَّ، ولم أعرف كيف أتصرّف معها، فكلّ ثانية مهدورة تعني تأخيرا قاتلا، لكنّ الأدب حتّم عليّ الاستماع إليها وإجابتها ولو للحظة.

- «يجب أن تنامي» ـ قالت بإلحاح ـ «فالأكيد أنّكِ تعانين من الحمى».

كان ذلك واردا جدّا، فقد كنتُ أحسّ بصدغيّ ينبضان بعنف شديد، وكانت تلك الأطياف الزرقاء التي تُنبئ بإغماء موشكٍ، تظهر، أحيانا، أمام عينيّ. لكنّي اعترضتُ، وأجهدتُ نفسي لأبدو ممتنّة، في

حين كانت تحرقني كلّ كلمة، وكنتُ أودّ قذف ذلك الاهتمام، الذي جاء في غير أوانه، بركلة من قدمي. لكنّ القريبة غير المرغوب فيها بقيَت، وبقيَت، وأطالت البقاء. قدّمت لي ماء الكولونيا، وأرادت أن تفرك صدغيَّ بنفسها، بينما كنتُ أَعدّ الدقائق، وكان ذلك الشابّ يحتلّ تفكيري، وقد بحثتُ عن ذريعة ما لأُفلت من هذه العناية المُعذِّبة. وكلّما ازداد قلقي كلّما تأكدت لديها شبهة مرضي، وأرادت في النهاية أن تجبرني، بشبه غلظة، على الذهاب إلى غرفتي والخلود إلى النوم.

وفي غمرة هذه المواعظ، نظرتُ فجأة، إلى السّاعة الحائطيّة التي تتوسّط البهو: كانت تشير إلى السّابعة وثمانٍ وعشرين دقيقة بينما ينطلق القطار في السابعة وخمسٍ وثلاثين دقيقة. وفي لمح البصر، وباللامبالاة الفَظّة لامرأة يائسة، مددتُ يدي، بغتة، إلى قريبتي، وقلتُ دون أن أُضيف أيَّ تفسير:

- «وداعًا، يجب أن أغادر».

ودون أن أكترث لنظرة ذُهولها، أو أن ألتفت، هرعتُ إلى باب الخروج، أمام النّظرات المندهشة لموظّفي النزل، ثم ركضتُ في الشارع نحو محطّة القطار. وقد فهمتُ، من خلال الإيماءات النّشطة لعامل التوصيل الذي كان ينتظر هناك مع الحقائب، أنّ الوقت قد حان.

اندفعتُ بغضب أعمى، نحو المدخل المؤدّي إلى رصيف الانطلاق، لكنّ مراقب المحطّة أوقفني، فقد نسيتُ اقتطاع تذكرتي. وبينما كنتُ أحاول (بأسلوب عنيف تقريبا) إقناعه بتركي أمرّ إلى



السكّة رغم كلّ شيء، كان القطار قد بدأ بالتحرّك: فثبتُّ بصري، مرتجفة الأوصال، لألتقط من إحدى نوافذ العربات، نظرة على الأقلّ، تلويح وداعٍ على الأقلّ، تحيّة. لكنّ سرعة القطار لم تترك لي أيّ فرصة لرؤية وجهه. وكانت العربات تضاعف من سرعتها، ولم يتبقَّ خلال دقيقة، أمام عينيَّ المظلمتيْن سوى سحابة من الدّخان الأسود.

والأكيد أنّني بقيتُ كالمتحجّرة هناك، والله أعلم بالمدّة التي مكثتُها، فقد خاطبني عامل التوصيل مرارا دون جدوى، قبل أن يتجرّأ على لمس ذراعي، ممّا جعلني أنتفضُ هلعًا. وسألني إن كان عليه إعادة الأمتعة إلى النزل.

لقد كنتُ في حاجة إلى بعض الدقائق كي أتمالك نفسي مجدّدا. لا، لم يكن ذلك ممكنا، فبعد رحيلي السّخيف والمتسرّع لا يمكنني العودة إلى النزل، ولم أكن أرغبُ في ذلك، ولن أرغب فيه أبدا.

ولأنّني كنتُ متلهّفة، أيضا، للبقاء وحدي، طلبتُ منه إيداع الحقائب في أمانات المحطّة. ثمّ حاولتُ التفكير، وسط الضّوضاء المتجدّدة للنّاس الذين يُهرولون بصخب في البهوِ وقد أخذ عددهم يتناقص شيئا فشيئا، حاولتُ التفكير بوضوح في وسائل الهرب من الهوس المؤلم والفظيع، هوسِ الغضب، والندم، واليأس، فقد كانت (ولِمَ لا أعترف بذلك) فكرةُ أنّني تسبّبت، بخطأٍ منّي، في إخلاف ذلك اللّقاء الأخير، فكرةً تمزّق قلبي بحدّة حارقة وقاسية. وكنتُ على وشك الصّراخ من فرط الألم الذي سبّبته لي تلك الشفرة الفولاذيّة الحامية التي كانت تخترقني بلا هوادة.

لعلّ الأشخاص الذين لم يُجرّبوا الشغف قطُّ، هم وحدهم من



يعرفون، في لحظاتٍ استثنائيّة جدا، هذه الانفجارات المباغتة لشغفٍ شبيهٍ بانهيار ثلجيّ أو إعصار، كيف تندفع سنواتٌ بأسرها من القوى المعطّلة، لتجري في أعماق صدرٍ بشري. ولم أُجرّب سابقا (ولا لاحقا) ذلك التّفاجُؤ، وذلك الرّعب الناتج عن العجز، كما جربتهما في تلك اللّحظة التي كنتُ فيها مستعدّة لجميع أشكال الجنون (مستعدّة كي ألقي إلى الهاوية، وبرميَةٍ واحدة، كلّ ما في حياةٍ محكمة التّنظيم من تحفّظات، ومن طاقة كامنة ومتراكمة إلى حدّ ذلك الحين)، وقد وجدتُ أمامي، فجأة، جدارا من العبث فتقدّم شغفي، دون جدوى، ليصطدم به.

ولم يكن ما فعلته بعد ذلك سوى عبث أيضا، كان جنونا، بل حماقة، أكاد أخجل من روايتها، لكنّي وعدتُ نفسي ووعدتك بألاّ أخفي شيئا: لقد كنتُ أسعى إلى العثور عليه مجدّدا... أقصد أنّني حاولتُ استحضار كلّ لحظة قضيتها معه... كنتُ منجذبة بعنف إلى جميع الأماكن التي كنّا فيها البارحة معا، كنتُ منجذبة إلى المقعد الخشبيّ للحديقة العموميّة حيث جررته، وإلى قاعة القمار حيث رأيته لأول مرة، وحتى إلى ذلك النزل المشبوه، لا لشيء سوى أن أعيش الماضي مرّة أخرى. وكنتُ أريد، في اليوم التالي، أن أتجوّل بالعربة في الطريق نفسه، المحاذي «للكرنيش»، حتى يتسنّى لكلّ كلمة ولكلّ حركة، أن تنبعث فيّ من جديد.

كم كان ارتباك روحي، أخرقَ وصبيانيّا!

لكن، ضَعْ في اعتباركَ أنّ هذه الأحداث انهالت عليّ كالصاعقة: ولم أشعر بشيء أبدا، سوى بضربة مباغتة، ضربة واحدة زعزعتني.



أمّا الآن وقد خرجتُ ـ تقريبا ـ من تلك الضوضاء، أريدُ أن أعيش، مجدّدا، تلك الأحاسيس الهاربة، وأستمتع بها استعاديّا، رويدا رويدا، من خلال تلك الطريقة السحريّة لخداع النّفس، والتي نسميها «الذكرى»...

وهذه أشياء، في الحقيقة، إمّا أن يفهما المرء أو ألاّ يفهما. وربّما عليه أن يمتلك قلبا متّقدا حتى يتسنّى له إدراكها.

وهكذا، ذهبتُ أوّلاً إلى قاعة القمار، كي أبحث عن الطاولة حيث كان، وأستعيد، بالخيال، رؤية يديْه بين كلّ الأيادي. دخلتُ، كانت الطاولة التي رأيته حذوها أوّل مرّة (أعرف ذلك جيّدا) هي اليُسرى في الصّالة الثانية.

كنتُ أعاود مشاهدة كلّ حركة من حركاته بدقّة: كأنّني امرأة تمشي أثناء نومها بعينيْن مغمضتيْن ويديْن ممدودتيْن، وكنت سأجد مكانه في النّهاية.

دخلتُ إذن، وعبرتُ الصّالة مباشرة، وهناك... حين التفتُّ إلى ذلك الحشد الصّاخب... بعد أن اجتزت الباب، حدث شيء فريد... هناك، في المكان الذي تصوّرته، هناك، كان جالسا (هلوسات الحمّى)... هو ذاته، هو شخصيّا... هو... هو... تمامًا كما رأيتُه لتوّي وأنا أحلم... تماما مثلما كان في الأمس، العيْنان مثبّتتان على الكُوَيْرَةِ، والوجه ممتقعٌ كشبح... لكنّه هو... هو... هو بلا ريب...

كنتُ على وشك الصّراخ لشدّة فزعي. لكنّي سيطرتُ على ذُعري أمام هذا المشهد غير المعقول وأغمضتُ عينيَّ.



«أنتِ مجنونة... إنّكِ تحلمين... أنتِ محمومة» ـ قلتُ لنفسي ـ «هذا مستحيل، أنتِ تهذين... لقد رحل على متن القطار منذ نصف ساعة».

عندئذٍ فتحتُ عينيّ ثانية، ويا للهول! ومثل المرّة السّابقة تمامًا، كان جالسا بلحمه وشحمه، دون شكّ... كنتُ قادرة على تمييز يديْه من بين ملايينَ غيرها... لا، لم أكن أحلم، كان هو فعلا... لم يسافر كما وعدني، وكما أقسم لي، لقد بقِي الأخرق، لقد جلب إلى هذا البساط الأخضر، تلك الأموال التي منحتُه إيّاها كي يعود إلى دياره وينسى هوسه، لقد جلبها ليقامر بها في هذه الطاولة، بينما كان قلبي البائس يتمزّق من أجله.

هزّت الرّجفة كلّ كياني ودفعتني إلى الأمام، وملأ الغضب عينيَّ، غضبٌ حانقٌ جعلني أحتدم غيْظا، وتملّكتني رغبةٌ في القبض على عنقه، هذا الحانث بيمينه الذي خان ثقتي ببؤس، خان مشاعري، وإخلاصي، لكنّي كبحتُ نفسي من جديد.

وببطء متعمّد، (أنا الآن في حاجة إلى كلّ ذرّة من طاقتي) اقتربتُ من الطاولة، قبالته مباشرة، ففسح لي أحد الرّجال مكانا بأدب. ولم يكن يفصلنا إلاّ متران من البساط الأخضر، وكمن يُطلّ من شرفة مسرحٍ، كنت أستطيع مشاهدة وجهه بسهولة، ذلك الوجه ذاته الذي رأيته منذ ساعتين مشعّا بالامتنان، ومحاطا بهالة من الرّحمة الإلهية، الوجه الذي عاد الآن فريسة مرتجفة لكلّ نيران الشغف الجهنميّة. واليدان، تِلْكُما اليدان اللّتان رأيتهما ظهيرة هذا اليوم تتشبّثان بخشب المركع من أجل أقدس الأيمان، ها هما الآن، متشنِّجتان من جديد،



تختطفان المال من حولها كمصّاصيْ دماء متعطّشيْن. ذلك لأنّه ربح، يفترض أن يكون قد ربح مبلغا كبيرا، كبيرا جدا، فقد كانت تلمع أمامه كومة من «الفيشات» المتنوّعة، و«اللّويسات» الذهبية والأوراق النقديّة. فوضى من الأشياء الموضوعة بغير ترتيب، تمتد أصابعه وتغوص خلالها بلذة. رأيت تلك الأصابع وهي تمسك مختلف الأوراق وتطويها مداعبة إيّاها، وتقلب القطع النقديّة وتتلمسها بحب، ثمّ تتناول حفنة وترميها على أحد المستطيلات، وبعد ذلك مباشرة، يأخذ المنخران في الاختلاج بشكل متقطّع، ويُحوّل نداء مدير اللّعبة، عينيْه البراقتيْن جشعا، من كومة الأموال إلى حركة الكويْرة الدؤوبة. كان يبدو كالمُقتلع من ذاته، في حين بدا كوعاه ملتصقيْن بالبساط الأخضر.

كان التملّك الذي يفترسه، يتجلّى بشكل رهيب ومفزع أكثر من اليوم السّابق، فكلّ حركة من حركاته كانت تقتل الصورة البرّاقة، التي تلمع كأنّها فوق خلفيّة ذهبيّة، تلك الصورة التي كنتُ أحملها عنه بسذاجة، وكانت تسكنني.

كنّا إذن، نتنفّسُ وأحدُنا على بعد مترين من الآخر. ثبّتُّ نظري عليه دون أن يلاحظ وجودي. إذ لم يكن يرفع عينيْه إليَّ أو إلى أيّ شخص آخر، وكان بصره يزحف إلى جهة المال فحسب، ويتأرجح بقلق عند متابعة دوران الكويْرة: إنّ تلك الدائرة الخضراء المسعورة، تستأثر بكل حواسه وتستثيرها. وقد اختُزل العالم كلّه، والإنسانية جمعاء، بالنسبة إليه، في ذلك المستطيل من البساط المدّد.

وكنتُ أعرف أنّ بإمكاني البقاء هنا لساعات متتالية دون أن



يتفطّن إلى وجودي. لكنّي لم أتحمّل أكثر، وبقرار مُباغت، طُفتُ حول الطّاولة، ووقفتُ خلفه، ثمّ أمسكتُ بكتفه فجأة.

فاضطربت نظرته، وتفحّصني للحظة، بعينيْن جامدتيْن كأنّهما من زجاج، كما يتفحّص شخصا لا يعرفه، كان، تماما، مثل سكران يصعب إيقاظه من نومه، سكران ما تزال عيناه ضبابيتيْن بفعل الأبخرة الرّمادية والدّخانية التي في داخله. ثمّ بدا كأنّه تعرّف عليَّ، فانفرج فمه مرتعشا، ورمقني بسعادة، ثمّ غمغم بمودّة فيها مراوغة وغرابة في الآن ذته:

- «الأمور على ما يرام... لقد أحسستُ بذلك منذ أن دخلتُ ورأيته هنا... لقد أحسستُ بذلك للتوّ».

لم أفهم ما كان يريد قوله. لاحظتُ فحسب، أن القمار قد أسكره، وأنّ هذا الأخرق قد نسي كلّ شيء: قسمه، وموعده، والكون وأنا. لكنّ توهّج النّشوة الذي اعتراه حين رآني، كان بالغ الفتنة ـ حتى في حالة التملّك تلك ـ إلى درجة أنّني تابعتُ سياق حديثه، رغما عنّي، وسألتُه باهتمام عمّن كان يتكلم.

«عن الجنرال الروسيّ العجوز الموجود هنا، ذي الذّراع الواحدة»، همس بسرعة وهو يدنو منّي حتى لا يسمع السرّ السحريّ أحدٌ، «هناك، صاحب الشعر الأبيض الذي لديه خادم يقف خلفه، إنه يكسب دوما، لقد لاحظتُ ذلك البارحة، ولديه بالتأكيد حيلة بارعة، وأنا ألعبُ مثله دائما. أمس أيضا، كان يربح باستمرار، ولم أرتكب سوى خطأ واحد، وهو مواصلة اللّعب بعد أن غادر: كانت تلك غلطتي... يُفترض أن يكون بالأمس قد ربح عشرين



ألف فرنك، وها هو، اليوم كذلك، يربح مرارا... وأنا، أُراهن الآن، اقتداء بما يقوم به... الآن...» وتوقف فجأة، وسط جملته لأنّ مدير القمار صاح بصوت أجشّ: «ضعوا رهاناتكم!»، وتحوّل نظره كالمُمَغنط، مُلتهما المكان الذي يجلس فيه ـ برصانة وهدوء ـ ذلك الروسيّ ذو اللّحية البيضاء الذي وضع ـ بحذر في البداية ـ قطعة ذهبيّة في المُستطيل الرّابع، ثمّ أضاف قطعة ثانية، بعد لحظةٍ تردّد. وفي الحين، غطست اليدان اللاّهبتان اللّتان كانتا أمامي، في كومة المال، ورمتا حفنة من القطع الذهبيّة في الخانة نفسها. وبعد دقيقة، عندما صاح مدير القمار: «صفر»، وكنس ممشاطه كامل الطاولة بحركة دائرية واحدة، نظر الشاب مذهولا ـ كأنّ معجزة قد حدثت ـ إلى كلّ ذلك المال وهو يرحل.

ولعلّك تعتقد أنّه التفت إليّ! كلاّ، لقد نسيَني تماما، وكنتُ قد اختفيتُ، ضعتُ، امّحيتُ من وجوده. وكانت كلُّ مشاعره المهتاجة منصبّة على الجنرال الروسيّ الذي تناول في يديْه ـ بلا اكتراث ـ قطعتيْن ذهبيتيْن جديدتيْن، ولم يكن متأكّدا، هذه المرّة أيضا، من الرّقم الذي سيضعهما عليه.

لا يمكن أن أصف لك مرارتي ويأسي، لكنّك تستطيع أن تتخيّل ما شعرتُ به: ألاّ تكون في نظر إنسان منحتَه كلّ حياتك، أكثر من ذبابة تهُشّها يدٌ كسلى بضجر.

وانتابتني سَوْرة غضب، من جديد، فأمسكتُ يده بشيء من العنف حتّى انتفض:

– «ستنهضُ فورا» ـ همستُ له بصوت منخفض، لكن بنبرة



آمرة، «تذكّر اليمين الذي أقسمتَهُ اليوم في الكنيسة، أيّها الحانث البائس».

نظر إليّ متأثّرا وشاحبا. واتّخذت عيناه فجأة، سحنة كلب مضروب. وارتجفت شفتاه، وبدا كأنّه يتذكر الماضي كلّه بغتة، وأُصيب بالذّعر من نفسه:

- « نعم... نعم...» ـ غمغم ـ «يا إلهي، يا إلهي... نعم... أنا قادم، سامحيني...»

كانت يداه تلملمان المال كلّه بسرعة، في البداية، وبحركات واسعة ونشيطة، ثم أخذت تتوانى أكثر فأكثر، كأنّه كُبح بقوّة مضادة. فقد وقع نظره مجددا، على الجنرال الروسيّ الذي كان بصدد وضع رهانه في تلك اللّحظة.

- «لحظة أخرى» ـ قال وهو يرمي سريعا، بخمس قطع ذهبية على نفس المستطيل ـ «هذا الدّور الوحيد فحسب... أقسم لك أني سأنصرف بعده... هذا الدّور الوحيد فحسب... هذا فحسب...».

وانقطع صوته مرّة أخرى. كانت الكُوَيْرة قد بدأت في التّدحرج آخذة إيّاه معها.

وهرب «المملوك» منّي مجددا، هرب من نفسه، مجرورا بدوران الكويرة الصّغيرة التي كانت تقفز وتنطّ في الحوض الصقيل.

صاح مدير القمار برقم، وكنس المشاط القطع الذهبيّة الخمس من أمامه، لقد خسر. لكنّه لم يلتفت، بل نسيَني، كما نسي قَسَمه،



ووعده الذي قطعه لي منذ دقيقة. وكانت يده الشّرهة قد غطست بتشنّج خلال كومة المال المُتضائلة، وكانت نظرته السّكرى منصبّة كليّا على جاره، جالب الحظ الذي يُمغنِط إرادته.

فعيلَ صبري وهززتُه من جديد، لكن بعنف أشدّ، هذه المرّة:

-«انهض حالا، في هذه اللّحظة بالذّات... ألم تقُل إنّه الدّور الأخير؟!...»

حدث عندئذ، شيء غير متوقع. لقد التفتَ فجأة، لكن الوجه الذي كان ينظر إليَّ حينها، لم يعد وجه رجل متواضع ومرتبك، إنّما وجه رجل غاضب، غاضب حتّى الثمالة، بعينيْن تتّقدان شررا وشفتيْن ترتعشان حنقا.

- «اتركيني وشأني!» ـ زمجر كنمر ـ «انصرفي، إنّك تجلبين لي النّحس، أنا أخسرُ عندما تكونين هنا، كان الأمر كذلك بالأمس وها هو اليوم أيضا، انصرفي...»

بقيتُ مصعوقة لوهلة، لكنّ غضبي فاض أيضا، في ما بعد، أمام جنونه:

- «أنا أجلب لك النّحس؟» ـ قلت موبخة إياه ـ «أيّها الكاذب، السارق، أنت الذي أقسمت لي!...»

لكنّني توقّفت عند هذا الحدّ، لأنّ المسعور وثب من مكانه ودفعني إلى الوراء غير عابئ بالصّخب الذي كان يرتفع:

-«اغربي عن وجهي» -صرخ بصوت قويّ ودون أيّ احتراس- «لستِ وصيّةً عليّ... ها هو... ها هو... ها هو مالُك» -ورمى



إليّ ببعض الورقات من فئة المائة فرنك- «أمّا الآن فدعيني وشأني...»

قال ذلك صارخا بقوّة، مثل مجنون، دون أن يكترث إلى وجود مئات الأشخاص من حوله، وكان كلّ الناس ينظرون، ويتهامسون، ويلمّحون إلى أشياء، ويضحكون، حتى أنّ فضوليين كُثرا قد التحقوا من الصّالة المجاورة.

فأحسستُ كأنّ ثيابي قد خُلعت عنّي، وأنّني عارية هنا، أمام هؤلاء الفضوليين.

-«اصمتي، سيّدتي رجاء». قال مدير القمار بصوت قويّ وآمر وهو يضرب على الطاولة بممشاطه. لقد كانت كلماتُ ذلك الشخص البائس موجّهة إليَّ.

هناك، كنتُ ذليلة ومكلّلة بالعار، وعرضة لذلك الفضول الهامس المغمغم مثل مومس مُنِحت مالا. وكانت هناك مائتان، أو ثلاثمائة عين تتملاّني.

و... وبيْنما كنتُ أنسحبُ، حانيةً ظهري تحت ذلك الوابل النّجس من الاحتقار والعار، حوّلتُ نظري إلى الجانب الآخر، فاعترضتني عينان جَعَلَتْهُما المفاجأةُ شبْه قاطعتيْن. إنّها قريبتي التي كانت تنظر إليّ بشرود، فاغرة الفم ومرفوعة اليد كمَن أصابه الهلع. وقد وقع عليّ ذلك كلسعة السّوط، فاندفعتُ خارج القاعة قبل أن تتمكن من التحرك وتستفيق من المفاجأة، و بالكاد كان لي من القوّة ما يكفيني للذهاب في اتجاه المقعد الخشبيّ مباشرة، المقعد ذاته الذي تهالك عليه، البارحة، ذلك المهووس. وتهالكتُ، ضعيفة مثله، على



الخشب الصلب القاسي.

مضت الآن أربع وعشرون سنة على هذه الحادثة، لكنّ الدّم مازال يتجمّد في عروقي، حين أفكّر في تلك اللّحظة التي كنتُ فيها هناك، مجلودةً بإهاناته تحت أنظار ألف مجهول، وأحسّ برعب من جديد، فأيّ خُلاصة ضعيفة وبائسة وجبانة، تلك التي نسمّيها بمبالغة: الرّوح، العقل، العاطفة، الألم...، مادام كلّ ذلك عاجزٌ، حتى في أقصى حدّته، عن تحطيم الجسد المتألّم، واللّحم المعذب، تحطيما تامّا. مادام الدّم يواصل نبضه رغم كلّ شيء، ومادام المرء ينجو من ساعات مماثلة، بدل أن يموت أو يتحطّم كشجرة أصابتها صاعقة.

لم يُشلّ الألم أطرافي إلاّ لوهلة، لوقتٍ يكفي لتلقّي الصّدمة، ما جعلني أتهالكُ على ذلك المقعد، مُصابة بالدّوار، ومتقطّعة الأنفاس، في استشراف شهوانيّ ـ إن جاز التعبير ـ لما سيكون عليه طعم موتي المحتوم. لكن ـ وقد قلتُ ذلك آنفا ـ كلّ ألمٍ جبانٌ: إذ يتراجع أمام قوّة إرادة الحياة الرّاسخة في لحمنا بشدة، أكثر من أيّ رغبة في الموت تُسيطر على تفكيرنا.

إنّه لأمر يعسُر عليّ فهمه، فبعد ذلك التحطّم الذي طال المشاعر، نهضتُ مجدّدا رغم كلّ شيء، دون أن أعرف ـ حقّا ـ ما عليّ فعله، وتذكّرت بغتة، أن حقائبي في محطّة القطار. ومنذ تلك اللّحظة، لم تعد لديّ سوى فكرة واحدة: الرحيل، الرحيل، الرحيل من هنا، الرحيل ببساطة، بعيدا عن هذا المبنى الجهنميّ الملعون.

ركضتُ إلى المحطّة، دون أن أنتبه إلى أحد، وسألتُ عن موعد انطلاق أوّل قطار نحو باريس. «العاشرة» أجاب الموظّف، فسجّلتُ



حقائبي في الحال.

العاشرة: مرّت، إذن، أربع وعشرون ساعة بالتّمام، على ذلك اللّقاء المُريع، أربع وعشرون ساعة مليئة بعاصفة قطعت سلاسل أشدّ العواطف جنونا، وجعلت روحي محطّمة إلى الأبد.

لكنّي لم أشعر في البداية إلاّ بكلمة واحدة وسط هذا الإيقاعِ أبديِّ الطَّرق والاهتزاز: الرّحيل، الرّحيل، الرّحيل. وكانت نبضات صدغيَّ تدقّ هذا اللّفظ في رأسي كمسمار: الرّحيل! الرّحيل! الرّحيل! بعيدا عن هذه المدينة، بعيدا عن نفسي، والعودة إلى بيتي، إلى أهلي، إلى حياتي الماضية، حياتي الحقيقية!

قضّيتُ اللّيلة في القطار، وعندما وصلتُ إلى باريس، تنقلتُ من محطّة إلى أخرى، فتوجّهتُ مباشرة إلى «بولوني» ومنها إلى «دوفر» ومن «دوفر» إلى «لندن» ومن «لندن» إلى منزل ابني، كلّ ذلك بسرعة الطيران، دون أن أفكّر أو أحسب حسابا لأيّ شيء. طيلة ثمان وأربعين ساعة، دون نوم، دون كلام، دون أكل. ثمان وأربعون ساعة لم تكفّ خلالها كلّ العجلات عن ترديد تلك الكلمة في صريرها: الرّحيل، الرّحيل، الرّحيل، الرّحيل.

وفي الأخير، حين دخلتُ ـ دون أن ينتظر أحد حضوري ـ إلى منزل ابني الرّيفيّ، ذُعر الجميع: فمن المؤكّد أن شيئا ما في كياني، وفي نظراتي، كان يخونني.

ولما تقدّم ابني ليقبّلني، تراجعتُ، إذ لم أكن أتحمّل فكرة لمسه لشفتيْن نجستيْن. وتجنّبتُ أيّ سؤال، ولم أطلب سوى الاستحمام، فقد كان من الضروريّ بالنّسبة إليّ تطهير جسدي (بقطع النظر عن



أدران السفر) ممّا يمكن أن يبقى عالقا فيه من شغف ذلك المهووس، من ذلك الرّجل المُشين.

ثمّ جررتُ نفسي إلى غرفتي، حيثُ نمتُ اثنتي عشرة ساعة، أو أربع عشرة، نوما كنوم البهائم أو الحجارة، كما لم أنم سابقا ولا لاحقا، نوم علّمني ما معنى أن تكون مُمدّدا داخل تابوت وأن تكون ميتا.

كانت عائلتي قلقة من أجلي، كما تقلق على مريض، لكنّ عطفهم لم يزدني إلاّ ألما، وكنتُ خجلى، لقد خجلتُ من احترامهم، ومن لطفهم، وكان عليّ أن أراقب نفسي باستمرار حتى لا أصرخ أمامهم فجأة، بأني خنتهم جميعا، نسيتهم، هجرتهم تقريبا، تحت تأثير نزوة مجنونة وخرقاء.

بعد ذلك، ساقني القدر إلى مدينة فرنسيّة صغيرة، لا أعرف فيها أحدا، فقد كان يُلاحقني هوسُ أنّ كلّ الناس باستطاعتهم، منذ الوهلة الأولى، اكتشاف عاري وتبذُّلي، من خلال مظهري. لفرط ما كنتُ أشعرُ بتعرّضي إلى الخيانة والتلويث حتى أعماق روحي.

وينتابني أحيانا ـ عندما أستيقظ صباحا وأنا بعدُ في فراشي ـ خوفٌ رهيب من فتح عينيَّ. وتنقضُّ عليَّ ذكرى تلك اللّيلة التي أفقتُ بعدها فجأة، بجانب رجل غريب نصف عار، فتتملّكني رغبة واحدة، تماما كما تملّكتني أوّل مرّة: هي الرّغبة في الموت فورا.

ورغم كلّ شيء، فإنّ للزّمن سُلطته العظيمة، والتقدّم في السنّ يُخمد المشاعر بطريقة عجيبة. فنُحسّ بقربنا من الموت، ويسقط ظلّنا أسود على الطريق، وتبدو الأشياء أقلّ إشراقا، ولا تعود قادرة على



النّفاذ عميقا وتفقد الكثير من قوّتها الخطِرة.

تعافيتُ، شيئا فشيئا، من الصدمة التي شهدتها. وبعد سنوات، قابلتُ ملحق المفوّضيّة الدبلوماسية للنمسا في اجتماع، وكان شابّا بولونيّا، ولمّا طرحتُ سؤالا عن عائلته، أجابني بأنّ أحد أبناء عمّه تحديدا، قد انتحر قبل عشر سنوات في «مونتي كارلو»، فلم يرجف لي جفن، ولم يؤلمني ذلك تقريبا: ولعلّ هذا الخبر (لماذا يُنكر المرء أنانيّته) أراحني، لأنّه أزال بتلك الطريقة كلّ خطر من فرضية لقائه مرة أخرى. ولم يعد ثمّة شاهد ضدي غير ذكرياتي الخاصة. لقد صرتُ أكثر هدوء منذ ذلك الحين. فأن يهرم المرء ليس ـ في الحقيقة ـ سوى أن يتوقّف عن الخوف من ماضيه.

وستفهم الآن، لماذا قرّرت فجأة، أن أروي لك قصّتي. فعندما كنتَ تدافع عن السيّدة «هنرييت»، وتساند، بشغف، فكرة أنّ أربعا وعشرين ساعة قادرة على تغيير حياة امرأة كليّا، شعرتُ أنّني معنيّة بكلماتك. وكنت ممتنّة لك لأنّي ـ ولأوّل مرّة ـ أحسستُ بوجود شخص يشاطرني الرأي، فقلتُ لعلّ العبء الثّقيل والهوَس الأبديّ بالماضي، يزولان بتحرير روحي عبر الاعتراف، ولعلّني غدًا أستطيع العودة هناك ودُخول القاعة حيث قابلتُ مصيري، دون أن يكون لديّ حقد عليه أو عليّ. عندئذ سترتفع الصخرة التي تجثم فوق روحي وستسقط بكلّ ثقلها على الماضي حتى لا يطفو على السّطح مجدّدا. لقد أحسستُ بالرّاحة إذ استطعتُ أن أفضي إليك بكلّ هذا. وأنا الآن سالية وشبه سعيدة. أشكرك على ذلك.

حين لَفَظتْ هذه الكلمات، فهمتُ أنّها أتمّتْ حديثها فوقفتُ بغتة،



وحاولتُ ـ بشيء من الحيرة ـ أن أجد ما يمكن قوله، لكنّها لاحظتْ ذلك ـ من خلال انفعالي، ولا ريب ـ فأردفتْ بسرعة وإيجاز:

-«كلاّ... أرجوك... لاتتكلّم، لا أريدك أن تجيبني أو أن تقول لي شيئا، أشكرك على إصغائك، وأتمنّى لك سفرا موفّقا.»

كانت واقفة أمامي، ومدّت لي يدَها مودّعةً فنظرتُ إلى وجهها دون قصد، وبدا لي حنونا بشكل فريد. كان وجه هذه السيدة العجوز بشوشا ومحرجا قليلا، في الآن ذاته.

هل كان ذلك انعكاسا للشّغف المنطفئ؟ هل هو الاضطراب الذي صبغ فجأة، خدّيْها بحمرة قلقة ومتصاعدة إلى شعرها الأبيض؟ إنّها هنا كفتاة، مرتبكة بحياء من الذّكرى، وخجلة من اعترافها.

لقد كنتُ متأثّرا رغما عنّي، وشعرتُ برغبة جامحة في التّعبير عن تقديري لها بكلمة، لكنّ صوتي اختنق. فانحنيتُ بشدّة وقبّلتُ يدها الذّاوية باحترام، يدها التي كانت ترتجفُ قليلا مثل ورقةِ خريف.

ألف راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

لاعب الشطرنج

المؤلِّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: سحر ستّالة

كيف السبيل إلى الإحاطة بعمل روائيّ صغير إلى هذا الحدّ يكاد يشفّ لبساطته ووضوحه وكلّ ما فيه يشدّنا إلى متاهة وسمها الكاتب عمدًا بـ «رقعة الشطرنج»؟ وأيّ مدخل قد يسعفنا في استكناه خبايا أبطاله والكلّ لاعبٌ والكلّ مشاهِدٌ في نفس الوقت؟

كتب ستيفان زفايغ إلى صديقه هرمان كيستن قبل انتحاره بخمسة أسابيع: «ليس هناك شيء مهم أقوله عن نفسي. كتبت قصة قصيرة حسب أنموذجي المفضّل البائس، وهي أطول من أن تنشر في صحيفة أو مجلة وأقصر من أن يضمّها كتاب وأشد غموضا من أن يفهمها جمهور القراء العريض وأشد غرابة من موضوعها في حد ذاته».

إنّ «لاعب الشطرنج» على بساطتها رواية مراوغة ظاهرها حكاية طريفة ممتعة عن سيرة لاعب شطرنج، وباطنها رسالة وداع وجّهها الكاتب زفايغ إلى الإنسانية جمعاء بعد أن فقد الأمل في الإنسان كما حلم به ودافع عنه، الإنسان الذي تحوّل إلى آلة تدمير لا هاجس لها غير السيطرة والربح: رجل الدين، رجل الأمن، المحامي، التاجر، لا أحد نجا من الإدانة، ولا أحد حافظ على هويّته في لعبة التحوّلات. لقد غربت الشمس وآن الأوان لكي نقول وداعًا.

شوقي العنيزي



الساعة الخامسة والعشرون

المؤلف: قُسطنطين جيورجيو

البلد: رومانيا

ترجمة: فائز كم نقش

إنّ رواية «الساعة الخامسة والعشرون» أحد أكثر الأعمال السردية الباعثة على أسئلة جذرية حول مصير الإنسان المأسَوِيّ، رواية تتجلّى فيها أصداء الملاحم الكبرى، والتراجيديات الإغريقيّة والمآسي الشكسبيريّة، ومجمل الأعمال التي انصبّ اهتمامها على مصير الإنسان، لذلك فهي تنتسب إلى سلالة الآداب السرديّة الرفيعة الخالدة.

ولعلّ القرّاء يشاطرونني الرأي القائل إنّ كثيرا من الروايات يتلاشى حضوره من الذاكرة بمرور الأيام، وتصبح استعادة أجوائه صعبة، وربما شبه مستحيلة، وقليلا منها يدمغ الذاكرة بختمه الأبدي، ومن ذلك القليل النادر، في ما أحسب، رواية «الساعة الخامسة والعشرون»

د. عبد الله إبراهيم

أحدثت هذه الرواية ضجّة في أوروبا كلّها لم يحدثها كتاب مماثل من قبل، فترجمت إلى أكثر من 40 لغة وأعيد طبعها في فرنسا وحدها 78 طبعة، أمّا في شرقنا العربيّ فقد حظيت بتقريظ واف، فقال بعضهم فيها: «إنّها أفضل كتاب صدر بعد جمهوريّة أفلاطون» وقال آخرون: «لم يسبق لكاتب أن نجح في هزّ مشاعر جماهير العالم كلّه نجاح مؤلّف هذا الكتاب»

فائز كم نقش



شحّاذو المعجزات

المؤلّف: قُسطنطين جيورجيو

البلد: رومانيا

ترجمة: وحيدة بن حمادو

حين تنتهي من هذه الرواية لن تفكّر في شيء غير تحسّس كلّ الأماكن الموجعة فيك، تحسّس ما كان مخدّرا واستيقظ فجأة ليذكّرك بما سُلب منك باسم التقدّم والرقيّ والحداثة.. إنّها رواية تشييع الإنسان إلى مثواه الأخير بعد أن تغلّقت في وجهه كل أبواب الخلاص وصار نهبا لرياح الإيديولوجيا والتصنيفات القاتلة. رواية لا تقلّ خطورةً عن «الساعة الخامسة والعشرون» العمل الأشهر لقسطنطين جيورجيو، تضعنا وجهًا لوجه أمام الفكر الشرس الطاعن في القسوة والمغالي في اضطهاد الفرد.

ما الّذي يدفع السُّود في هذه الرواية إلى تسوّل المعجزات؟

«السود عاجزون عن الإيمان بأيّ شيء. ولكنهم بشر ويجب أن يؤمنوا بشيء ما. ومن بين الأشياء المرئيّة كلّها لا وجود لما يستحقّ ثقتهم. لذلك ينتظرون المعجزات. هم لا يؤمنون بالمعجزات لأنهم سذّج أو أغبياء. بل لأنهم يائسون. ولارجاء لهم في غيرها».

رواية ترسم لنا رحلة العودة إلى الإنسان الذي تركناه وحيدا ضائعا، حاملا تابوته في بداية الطريق.

شوقي العنيزي



البُنيّة والسيجارة

المؤلّف: بونوا ديتيرتر
البلد: فرنسا
ترجمة: زهير بوحولي

بسخرية حادّة يرسم الروائي الفرنسي بونوا دي تيرتر عالمًا يعجّ بالمفارقات ويدين كلّ التصوّرات الشموليّة التي جاءت باسم خلاص الإنسان فقادته إلى مثواه.

«البنيّة والسيجارة» علامة من علامات أدب الديستوبيا (أدب المدينة الفاسدة) في القرن الحادي والعشرين، ولكنّها دستوبيا ساخرة تُعرّي بخفّة تهافت عالم من المُثل والأحلام والقيم حتّى تغدو الخفّةُ صنوًا للثقلِ ويصبح الكائن لا يُحتمل.

رواية نُشرت سنة 2005 ومع ذلك فقد بلغت حدّ التنبّؤ العام والتفصيلي أحيانا بما سيحدث في سورية مثلا في السنوات الأولى من العشرية الثانية إذ يصوّر الكاتب مشاهد لهو الإرهابيين السينمائي بضحاياهم مسجِّلا سبقا سرديا وحدسيا لما سيشاهده العالم بأسره بعد ذلك على شاشات التلفاز.

تنقذ سيجارةٌ حياةَ محكوم عليه بالإعدام فيخرج من غياهب السجن إلى ساحات المجد والشهرة بدعم من لوبيات صناعة التبغ، وتقلب سيجارة حياة موظّف رأسا على عقب فيتهاوى إلى الدرك الأسفل. وبين هذا وذاك رسائل عديدة يبعث بها الكاتب: إدانةُ النفاق الاجتماعي إذ يكرّس شعارات «العناية بالطفولة» محلّ «الأفكار الشمولية». والدعوةُ إلى الاهتمام بأنموذج بشريّ كاد يلفّه النسيان: الرجل الكهل المنتج، تتغذى الإنسانية من لحم كتفيه ولا يغنم غير الإهمال.



بذلة الغوص والفراشة

المؤلِّف: جون دومينيك بوبي
البلد: فرنسا
ترجمة: شوقي برنوصي

(كُتبت هذه الرواية برمش العين اليسرى)

من حيث ينتهي المُتاح، يبدأ الإبداع، والأنفس الحرّة وإن غدت جثثًا، قادرةٌ على الطيران.

درسان عميقان من رواية لم تكلّف نفسها عناء الوعظ والإرشاد، فكلّ ما فعله الكاتب أن أصرّ على الحياة، ولمثل تلك المهمّة يكفي أنف ورئة للتنفّس، وبلعوم لتلقّي الغذاء، ورمش عين يُسرى لباقي الأدوار! نعم برمش العين ذاك أبقى جون دومينيك بوبي على صِلته بالعالم كاملةً مُبتكرًا طريقةً في التواصل هي الترجمة الحيّة لكلمة «إرادة» أمّا مضمون السرد فذهاب وإياب بين أمسٍ قادرٍ وحاضرٍ كسيح، وبين خارج يُرى، وداخلٍ يَرَى، ولا رابط بين فصلٍ وآخَر، أو حكاية وأُخرى سوى أنّ كُلاً منها قد شغلت حيّزاً من الذاكرة والوجدان، فعند الفقد لا يبقى من فرق بين التافه والمهمّ، لكلٍّ من الاشتهاءِ نصيب. والرواية ككلّ الأعمال الكُبرى نبش في أسئلة الماهية وثنائيّة الجوهر والعَرَض، حتى وإن توسّلت بالفكاهة القاتمة بل لعلّها ما أفلحت إلّا لذلك، أوَليست روح الكاتب الخُلّبُ هي المعادل الموضوعي للفكاهةِ وخفّتها الأشبه بالفراشة، وَجسدُه المأزق هو بذلة غوصه الضاغطة والقتامة لونُها واقعاً ومجازاً؟

رمزي بن رحومة



قطار الليل إلى لشبونة

المؤلّف: باسكال مرسييه
البلد: سويسرا
ترجمة: سحر ستّالة

منذ الصفحات الأولى لـ«قطار الليل إلى لشبونة» يُسمع صدى صوت عنيد، يكبر على امتداد الصَّفحات و لا ينفك يردد بأن هذا الكتاب الضخم رواية عظيمة. رواية قادمة من عصر آخر، عصر الإنسانيات قبل أن تدمّر السخرية أو اللامبالاة حبّ المعرفة.

الفيغارو

تتداخل الأحداث والأمكنة والذكريات، وتتدفّق المشاعر والمعارف والأفكار في نهر واحد ليس شيئا آخر سوى نهر الذّات وهي تستيقظ على نداءاتها المكتومة وأسئلتها المهملة: «إذا كان صحيحا أننا لا نعيش إلّا جزءا صغيرا مما يعتمل في داخلنا، فما هو مصير بقية الأجزاء إذن؟». سؤال مهمل من بين أسئلة كثيرة أخرى لا يكفّ هذا العمل الساحر عن إيقاظها فينا حتى تغدو حياتنا بأسرها موضع سؤال. ما الأدب إن لم يكن طريقا إلى الإنسان؟ وما قطار الليل إن لم يكن رحلة في خبايا الذات؟ وما الذّات إن لم تكن الفريد والمختلف والغريب في وجه المشترك والمؤتلف والمألوف؟

لا قطار ولا ليل ولا لشبونة، إنّها دعوة لكلّ واحد منّا كي يقتطع تذكرته الخاصّة بحثا عن الإنسان فيه، الإنسان الذي تركه غريبا مُهملا في محطة مهملة على سكّة الحياة.

شوقي العنيزي



لمواكبة جميع إصداراتنا، تابعوا صفحتنا

على تويتر: MascilianaE@

وعلى الفايسبوك: Masciliana Editions

على تويتر: MasaaPublishing@

وعلى الفايسبوك: Dar Masaa



ستيفان زفايغ

أربع وعشرون ساعة من حياة امرأة

يجب ألاّ تقرأ هذه الرواية...

فما بين يديك ليس رواية بل لعبة مراهنة. أنت تقامر فيها بحياتك كاملة مقابل «أربع وعشرين ساعة من حياة امرأة»، أربع وعشرين ساعة من الهوس المرضي المتربص بالمشاعر وأضدادها في الآن ذاته، هوس الوصف والتصوير والتخييل ورصد أدق التفاصيل القاتلة، هوس السرد الذي لا يرمي إلى إجابة ولا يسعى إلى رد أو تعليق، ولا طائل من ورائه سوى التطهّر الذاتي وتحرير الروح من خلال الاعتراف، ولعله هنا اعتراف الكاتب «زفايغ» الذي قامر بحياته من أجل الوطن والإنسان لكنه لم يصب في النهاية سوى مرارة الخيبة فاختار أن يعبر عنها على لسان السيدة «س»: «لا يمكن أن أصف لك مرارتي ويأسي، لكنك تستطيع أن تتخيّل ما شعرتُ به: ألاّ تكون في نظر إنسان منحتَه كلّ حياتك، أكثر من ذبابة تهشّها يدٌ كسلى بضجر».

هذه الرواية ليست سوى تصفية حساب مع الإنسان، وتعرية فاضحة لإصراره الدائم على الإنكار أو التبرير

فهل مازلت تعتقد حقا أنك تريد قراءتها؟

إذن «ضع رهانك»...

أحمد شاكر بن ضيّة

ISBN: 978-9938-833-88-1





